بتول الجبل

مجموعة قصصية: بتول الجبل

*الكاتب : عزيز عثمان

* تصميم الغلاف : د.شيماء أبوطالب

الإخراج الداخلي: يوسف محمد أحمد ود.شيماء أبوطالب

*رقم الإيداع: 2023/8378

*الترقيم الدولي: 7-5389-94-977-978

مجموعة قصصية ساخرة

بتول الجبل

عزيز عثمان

إهداء

إلىٰ الروح التي أنتمي إليها...

إلىٰ الروح التي اكتشفت معها إنسانيتي...

إلىٰ الروح التي ستظل باقيةً أبد الدهر...

إهداء إلىٰ روح ٢٥ يناير... فقط.

عزيز عثمان

شجرة العائلة

نشـــأتُ وترعرعتُ في أســـرةٍ ريفيةٍ ميســـورة الأحوال المادية في قريتنا الحبيبة «بتول الجبل» وهي إحدىٰ القرىٰ البســيطة التي تعرضـــت لهجوم المدنية المعتاد، ورغم صِــغر مســـاحة القرية إلّا انها أبت أن تنصـاعَ لهجوم المدنية الشـرس، فلم تتغير فيها سـوىٰ المنازل المُقامة بالطين والطوب اللبن؛ حلّت محلها منازل الأعمدة الإســـمنتية، علىٰ عكس العقول الإســـمنتية القديمة التي أبت أن تتغير إطلاقًا، وكذلك حال عائلتي الكريمة، فقد كنت كلما تحدثتُ مع أحد أفراد أســـرتي أو عن أحد أفراد أسرتي؛ لا أتمالك نفسي من الضحك.

أخي الأكبر شابٌ قرويٌ يافعٌ يمتلك عادة غريبة نوعًا ما، فقد كان يكره الحمامات ودورات المياه بدون ســبب، وغالبًا ما كان يترك مجلســـنا فجأة ويذهب إلىٰ شـجرة كبيرة في وسـط الأرض الزراعية لا نعرف لها



ثمارًا، فقد تغيرت ملامحها من أثر البولينا. لم يكن أخي الأكبر يخجل إطلاقًا من هذه العادة القذرة، وعندما يسألنا الغرباء: «أخوكم راح فين؟»

فنقولُ لهم: «راح يكلّم الشجرة كلمتين سر»

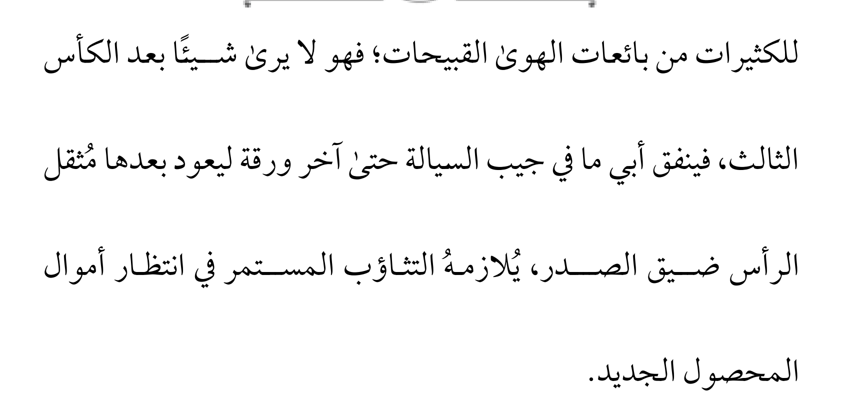
أما عن أخي الأوسط فقد كان صاحب عقل مُختلف ومُبدع، كان يهوىٰ السباقات، ليست السيارات بالطبع، لكنهُ يهوىٰ سباقات التكاتك. بمنتهىٰ البساطة يخترع الأكاذيب ليأخذ من أمي بعض الأموال؛ يستأجر توكتوك ويجتمع مع أصدقائه المهووسين أمثاله، ثم يبدأ السباق...

يبدأ سباق التكاتك عادةً من بداية أرض الوالد «جوه البلد» مرورًا بالسوق ووصولًا لخط النهاية عند الجمعية الزراعية القائمة كالغراب في شرق البلد، ولا تختلف نتائج جميع السباقات عن بعضها، ففي نهاية كل يوم يجتمع بعض الأهالي الذين تضرروا من السباق ومعهم أصحاب التكاتك المُتضررة، وبعد التعدي الروتيني علىٰ أخي الأوسط بدايةً من البصق والشتائم بالأم والأب، وحتىٰ الضرب علىٰ مؤخرة الرأس –وأحيانًا المؤخرة الرئيسية– ليقتادوهُ بعد ذلك إلىٰ منزل عمي، ذلك الرجل المتحفظ، فيعطيهم العوض في خساراتهم، ثم يهرب أخي من بيت عمي ليذهب إلىٰ «نعناعة بائعة الطعمية» لتداوي لهُ بعض الجروح وتأخذ الجنيهات المتبقية لديه، ليعود بعد ذلك إلىٰ المنزل ويفكر في أكاذيب جديدة من أجل سباق التكاتك في الغد.



كان العداء بين والدي وعمي عداء تاريخي مُتأصِّـل، يتحدث عنه أهل القرية كأنه قصــص من التراث الشــعبي القديم، ويُرجع البعض هذا العداء إلىٰ أيام المماليك البحرية، لم أفهم كيف هذا ونحن نعيش في الألفية الثالثة! لكنهما علىٰ كل حال مثالين مُتناقضــين في كل شــيء، عمي رجل محافظ للغاية، كرّسَ حياته من أجل توسيع رقعته الزراعية، فأصــبح من أغنياء الطبقة الارســتقراطية الريفية، وأنجب فتاة لا يراها أحد إلّا من خلال السياج الحديدي لمنزلهم الكبير.

أمّا والدي... فقد كان علىٰ النقيض تمامًا، هو أحد قدماء الأعيان، ينتظر موســم جني المحصــول بفارغ الصــبر، وما أن تســكن أموال المحصــول «جيب الســيالة» حتىٰ يطير بها إلىٰ القاهرة ويتنقل بين «البارات والكباريهات» فيُصــبح أُضــحوكة الجميع ومصــدر رزق



للكثيرات من بائعات الهوىٰ القبيحات؛ فهو لا يرىٰ شيئًا بعد الكأس الثالث، فينفق أبي ما في جيب السيالة حتىٰ آخر ورقة ليعود بعدها مُثقل الرأس ضيق الصدر، يُلازمهُ التثاؤب المستمر في انتظار أموال المحصول الجديد.

أما أصغر الأبناء فهو الفقير إلىٰ الله، أنا؛ طالب ثانوي يقول عني الأغبياء أنني طالبٌ فاشل، بالرغم من أنني شاب مُنظمٌ جدًا وأسيرُ علىٰ نهجٍ واحدٍ وواضح؛ أرتدي الزي المدرسي الثانوي منذ ست سنوات، فقد نجحتُ في الصف الأول الثانوي بعد ثلاث سنوات، ونجحت في الصف الثاني الثانوي أيضًا بعد ثلاث سنوات، وبما أني الآن في بداية الصف الثالث! فما زالت أمامي ثلاثة أعوام أخرىٰ، هكذا أسيرُ دائمًا علىٰ نهجٍ واحدٍ وواضح، فلست مُتعجلًا علىٰ أي شيء،



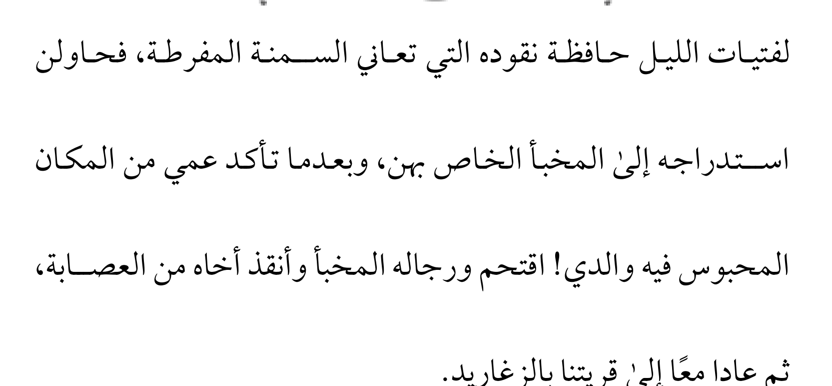
لكنَ أخي الأكبر هو من كان مُتعجلًا علىٰ شــيءٍ ما؛ كان أخي يريد الزواج من ابنة عمي.

اجتمعت الأسرة الكريمة برئاسة الوالد واتفقوا علىٰ الذهاب إلىٰ منزل عمي بدون مقدمات وخطبة ابنته ســليلة المدارس البريطانية لأخي الأكبر صديق الشجرة، وذهبنا جميعًا مُبتسمين ابتسامة بلهاء إلىٰ منزل عمي ونحن علىٰ ثقة من الموافقة علىٰ طلب الزواج، ولكن...

لم تأتِ الموافقة المتوقعة، بل ولم يكن الرفض مؤدبًا، كانَ رفضًــا مصــحوبًا بأفظع الشــتائم من عمي وزوجة عمي وابنة عمي والخادمة التي تعمل في منزل عمي، رفضـوا جميعًا رفضًـا مشـمولًا بأسـبابٍ لها علاقة بالحديث عن الشــجرة الشــهيرة وعلاقتها بأســرار أخي الأكبر معها، ومرورًا بالإشارة إلىٰ فضائح رحلات أبي المستمرة إلىٰ القاهرة.

مرّت بضعة أيام والعلاقات مقطوعة تمامًا بين الأسرتين، غضب أبي غضبًا شديدًا واتخذ قرارًا جريئًا لا رجعة فيه، وكان قراره أن يأخذ الأموال التي كان سيتزوج بها أخي الأكبر –وهي أموال من ميراث والدتي– ويطير بها إلىٰ القاهرة كي يُريح أعصابه بعد ما كانَ من شقيقه؛ وقد فعل.

كانت هذه الرحلة إلىٰ القاهرة هي الكارثة الأعظم علىٰ الإطلاق، فقد وقع والدي صاحب الخمسون ربيعًا في براثن عصابة فتيات ليل، خطفوهُ وطلبوا فدية تفوق أملاك والدتي المتبقية، فذهبت والدتي علىٰ الفور إلىٰ عمي كي تستنجدَ بِهِ، فسافر عمي مباشرةً إلىٰ القاهرة وبصُحبتِهِ بعض الرجال الأشدّاء، واقترب رويدًا رويدًا من هذه العصابة، ثم فَعَلَ كما فعل رشدي أباظة في فيلم صراع في النيل، أظهر



لفتيات الليل حافظة نقوده التي تعاني السـمنة المفرطة، فحاولن استدراجه إلىٰ المخبأ الخاص بهن، وبعدما تأكد عمي من المكان المحبوس فيه والدي! اقتحم ورجاله المخبأ وأنقذ أخاه من العصابة، ثم عادا معًا إلىٰ قريتنا بالزغاريد.

بمرور الوقت! وبدون سبب معلوم! أخذت العلاقات بين عمي وأبي تنتهج نفس النهج القديم؛ العبوس الدائم في وجهَيهما، والسلام الذي لا يُلقيه أحدهما علىٰ الآخر، حتىٰ انقطعت العلاقات تمامًا، إلىٰ أن ذهبَ أخي الأوسط بطل سباق التكاتك إلىٰ خالي —وهو رجلٌ مِن عائلةٍ شديدة البأس— كي يتوسط لهُ عند عمي من أجل أن يخطب ابنته الوحيدة سليلة المدارس البريطانية، فوافق خالي علىٰ الفور، وتحدث مع والدي وأعضاء الأسرة الكرام، فقرروا جميعًا الذهاب كوفدٍ رسميّ

إلىٰ عمي لخطبة ابنته لأخي الأوســط بدلًا من أخي الأكبر، وقد ذهبوا بالفعل حاملين علىٰ وجوههم ابتســامة بلهاء تشــبه الابتســامة الأولىٰ، لكن عمي لم يرفض في هذه المرّة، بل بصـق، نعم، بصـق عمي في وجه كبير الوفد الذي هوَ خالي.

كـان خـالي رجلًا ذو هيبـة ومكـانـة في القريـة، لـذا فقـد اعتبرهـا إهـانـة لشــخصــه ولعائلته ولقرية بتول الجبل وللقارتين الأفريقية والآســيوية معًا، ولذلك اتخذ أبي قرارًا جريئًا لا رجعة فيه؛ قرر أبي أن يقتل عمي، واتخذ أخي الأوسط نفس القرار؛ قرر أخي مُنفردًا أن يقتل عمي، وقرر خالي أن يقتل عمي... ويقتل أبي أيضًا.

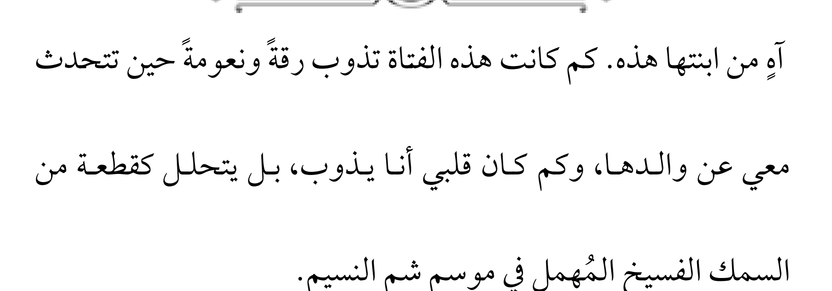
لم تمضِ ســوىٰ بضــعة أيام أخرىٰ، وقبل تنفيذ هذه القرارات جميعًا؛ سقط عمي فجأة أمام منزله مُصابًا بجلطة في القلب... ويا للعجب!



حين أُصــيبَ عمي بجلطة القلب رأيت والدي يهرول مُترهلًا نحو منزل أخاه، مرتديًا «الكلســون» وباكيًا كالأطفال وهو يقول: «أخويا أخويا أخويا» وهَرّوَلت خلفهُ أمي وأخوتي كذلك، أمّا أنا! فجريتُ خلف الجميع.

ذهبنا جميعًا حاملين عمي إلىٰ مستشفىٰ استثماري كبير، وتناوبنا علىٰ خدمة عمي في المســتشـفىٰ وابنة عمي ووالدتها في المنزل، أخي الأكبر يقوم برعاية الأرض، وأخي الأوسـط مُلازمٌ لأبي في المسـتشـفىٰ، وأنا أقضي طلبات زوجة عمي وابنتها...

ابنتها... ابنتها...



آهٍ من ابنتها هذه. كم كانت هذه الفتاة تذوب رقةً ونعومةً حين تتحدث معي عن والدها، وكم كان قلبي أنا يذوب، بل يتحلل كقطعة من السمك الفسيخ المُهمل في موسم شم النسيم.

لكن الحال تغير بعد اكتمال شفاء عمي، وبدون سبب معلوم عاد الشقيقان إلىٰ سابق العهد المقدس من قطع العلاقات، لكنني أخذتُ أفكرُ جدّيًا في التقدم لخطبة ابنة عمي، فلا علاقة لي بالشجرة التي بدأت تذبل من أثر حمض البولينا الناتج من حديث أخي الأكبر، ولا تداوي جروحي «نعناعة بائعة الطعمية» من أثر سباقات التكاتك كما الحال مع أخي الأوسط.

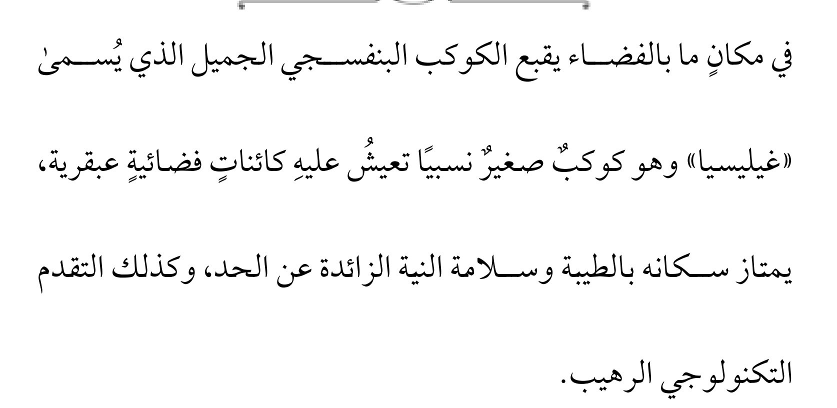


لذلك... قررتُ أن أذهب إلىٰ خالي ووالدي كي يخطبا لي ابنة عمي سـليلـة المـدارس البريطـانيـة، وذهبنـا جميعًـا إلىٰ منزل عمي بنفس الابتسامة البلهاء...

لكنني لن أقص عليكم ما حدث هذه المرة.

*****

كوكب غيليسيا البنفسجي



في مكانٍ ما بالفضـــاء يقبع الكوكب البنفســـجي الجميل الذي يُســـمىٰ «غيليسيا» وهو كوكبٌ صغيرٌ نسبيًا تعيشُ عليهِ كائناتٍ فضائيةٍ عبقرية، يمتاز ســـكانه بالطيبة وســـلامة النية الزائدة عن الحد، وكذلك التقدم التكنولوجي الرهيب.

كائنٌ فضائيٌ غيليسي يُدعىٰ «بيبي» هو مواطن من المواطنين العاملين في مجلس إدارة الكوكـب قســـم العلاقـات الخـارجيـة مع الجيران، استطاع بيبي أن يُقدم بحثًا عن إمكانية حياة الغليسيين علىٰ كوكبٍ آخر يُســـمىٰ كوكب الأرض، وقد تخير بيبي إحدىٰ أكثر المدن الأرضـــية ازدحامًا بالســـكان لتكون موضـــوع البحث، فذهب ليقابل مدير الأمن القومي لكوكب غيليسيا، ثم دارَ بينهما هذا الحوار:



- هل تعتقد يا سـيد بيبي أننا نسـتطيع أن نعيش علىٰ كوكب الأرض ونستطيع كذلك أن نُقيم علاقات تعاون مع البشر؟

بيبي:

- بالطبع سـيدي، هذا شـيءٌ مؤكد، فلدينا تكنولوجيا متقدمة للغاية سـتبهر البشـر بكل تأكيد، وحتمًا سـيرغبون في نقل خبراتنا إليهم، هذا بخلاف أننا كائنات فضائية مسالمة و...

قاطعه مدير أمن الكوكب قائلاً:

- إذن... قرارٌ سـريعٌ يتم تنفيذه اليوم، سـتنتقل أنت أولًا إلىٰ كوكب الأرض من خلال جهاز الناقل الأيوني النتروني البروتوني، اليوم اليوم، الساعة الساعة، العجل العجل، ولكي

تكون التجربة حية وواقعية! سنقوم بتغيير شكلك حتىٰ تصبح مثل هؤلاء الأرضيين، وسنزودك ببرامج اللغات واللكنات الدارجة أيضًا، وكذلك شريحة ترجمة للكلمات غير المألوفة، فإذا استطعت أن تتكيف مع أهل الأرض؛ فسنعتبر مشروعك قضيتنا الأساسية، وإذا لم تستطع التكيف مع البشر؛ فسنعتبر مشروعك كأنه «بلح»

- بلح! ماذا تعني هذه الكلمة يا سيدي؟

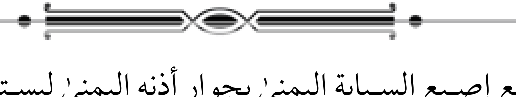
قال مدير أمن الكوكب ضاحكًا: «بلح» هي إحدىٰ الكلمات الدارجة التي يستخدمونها سكان المدينة المقرر لكَ التعامل معهم في كوكب الأرض، والكلمة لها أكثر من معنىٰ: الأول نوعٌ من الثمار... والثاني بمعنىٰ شيءٌ وهمي... أما الثالث فهو شيءٌ غريب لا أفهمه خاص



بزيادة الأسعار ومرتبط بشيءٍ غريبٍ أيضًا يسمىٰ الدولار... وكلاهما يرتبطان بشيءٍ أكثر غرابة يقال عنه التعويم.

لم تمر لحظات قليلة حتىٰ بدأت رحلة بيبي، فوجد نفسه في منطقة الباطنية بالقاهرة، يرتدي ملابس فاخرة، ويمتلك حافظة بها الكثير من (الفيزا كارت) التفت يمينًا ويسارًا وأخذ يتلمس وجهه بيديه، فعرف أنهُ الآن في جسد إنسان، ثم وضع إصبع السبابة اليسرىٰ علىٰ أذنه اليسرىٰ ليستمع إلىٰ الرسائل المسجلة:

«سيد بيبي... أنت الآن في مهمة سرية، جسمك جسم إنسان، شكلك شكل إنسان، ملابسك ملابس إنسان، لكن في أعماق أعماق عقلك لازم تكون عارف إنك رأفت الهجان... عفوًا... إنك بيبي الغليسي»



ثم وضـع إصـبع السـبابة اليمنىٰ بجوار أذنه اليمنىٰ ليسـتمع الىٰ رسـالة

جهاز المعلومات والترجمة:

«سيد بيبي... أنت الآن في منطقة الباطنية، كانت تسمىٰ قديمًا

الباطلية، لأن أهلها قديمًا كانوا يقولون "روحنا في الباطل" ثم

تحرفت من الباطلية إلىٰ الباطنية، وهي الآن ســوق لتجارة

المخد...»

انقطعت الرســالة علىٰ إثر حادثة، فقد اصــطدمت ســيارة إســعاف

بالكائن الفضــائي بيبي، وقع علىٰ إثرها مغشــيًا عليه، وتصــادف مرور

رجل يدعىٰ «ســيد التمرجي» أمام الحادثة، فحملهُ مع بعض الرجال

إلىٰ نفس سيارة الإسعاف ومنها إلىٰ مستشفىٰ الحسين الجامعي.



استفاق بيبي في المستشفىٰ علىٰ وجهٍ جميلٍ جعل عيناه تتسعان عن آخرهما، فقد كانت «ناهد» الممرضة هي صاحبة أول وجه أنثوي يراه الكائن الفضائي، فقالت لهُ ناهد بصوتها الذي يلين له الحجر:

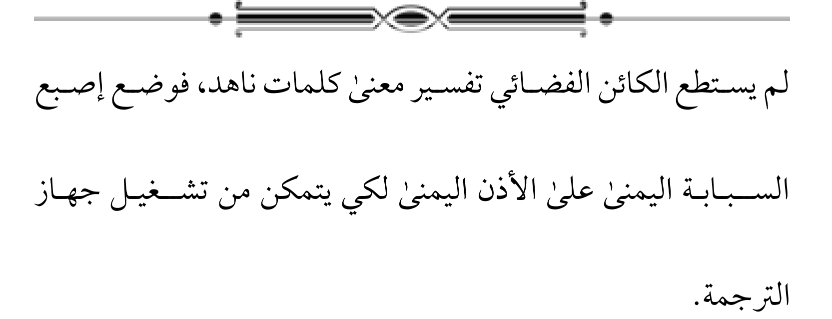
- «اتعدل الناحية التانية عشان اديك الحقنة يا.... انت اسمك ايه؟»

قال لها الكائن الفضائي مُبتسمًا:

- «بيبي، قولي لي يا بيبي»

فردّت عليهِ ناهد بصوت يشبه صوت الشاويش عطيه وبكلماتٍ ذات حروفٍ ثقيلة:

- «نعم يا روح امك!؟»



لم يستطع الكائن الفضائي تفسير معنىٰ كلمات ناهد، فوضع إصبع السبابة اليمنىٰ علىٰ الأذن اليمنىٰ لكي يتمكن من تشغيل جهاز الترجمة.

جهاز الترجمة: «روح أمك، روح أمك، كلمة دارجة في هذا المجتمع، تعبر عن حب الأم لأبنائها، والأم... الأم مدرسةٌ إذا أعددتها أعددت شعبًا طيّبَ الأعراقِ، هذا الشخص يمدحك، هذا الشخص يمدحك وعليك تقديم الشكر، انتهىٰ»

فقال بيبي مبتسمًا وموجهًا حديثهُ للممرضة:

- جزيل الشكر لكِ آنستي، في الحقيقة أنتِ إنسانة محترمة، أشكرك.



فقالت له ناهد الممرضة وقد بدا عليها الذهول:

- «آه؛ انت جاي بالإسعاف من الباطنية!؟ فهمت؛ شكلك كده واد ابن ناس ومعاك فلوس، أنا رزعتك حقنة مورفين، إجمد بقىٰ وخليك راجل ومتنسانيش في الحلاوة»

ثم همس سيد التمرجي في أذنه :

- «متصـــدقهاش؛ ده انا اللي حطيت لك حتة أفيون تحت لسانك، هي دي اللي هتظبطك، محسوبك سيد التمرجي»

ما بعد الأفيون والمورفين والبروفتين وجميع أعضـاء عائلة المخدرات؛ استفاق الكائن الفضـائي ليجد نفسه في غرفة الإفاقة



بالمستشفى، يداهُ مُكبّلتان في السرير بالقيود ويقف بجواره المدعو سيد التمرجي، فدار هذا الحوار بين التمرجي والكائن الفضائي:

- أريد الخروج من هنا يا سيد سيد

- «بس كده!؟ غالي والطلب رخيص، انا هخرجك من هنا ونطلع ع البلد عندنا، قرية صغيرة هتعجبك اسمها بتول الجبل، إحنا جدعان أوي، أنت من دلوقتي صاحبي، أنت من دلوقتي أخويا في الرضاعة، انت من دلوقتي... انت معاك فلوس قد ايه؟»

- معي «كارت فيزا» سأعطيك ما تريد، ولكن لماذا أنا مُكبَّلٌ هكذا؟



- «أصل الدكتور لما كشف عليك لقىٰ عندك اتنين زايدة دودية، واحدة يمين وواحدة شـمال، ولما راح بلّغ الأمن! راحوا قابضين عليك»

- زائدتان دوديتان! ولماذا يتم القبض علي؟ وبأيةِ تهمة؟

- «بيقولوا طالما عندك اتنين زايدة يبقىٰ ده دليل إنك جاسـوس لأمريكا وإيران وإسـرائيل وكوت ديفوار وجزر القمر، عشـان كده قبضوا عليك»

- لا... لا يمكنني تأدية واجبي نحو سـكان الكوكب وأنا مُكبَّلٌ هكذا، يجب أن أتحرر من هذا القيد، هلّا سـاعدتني يا سـيد سيد؟

لم يتوان سيد عن البدء في مهمته الجديدة بتهريب الكائن الفضائي من المستشفىٰ إلىٰ القرية الشهيرة بتول الجبل، فقد سرقَ مفاتيح القيود مُسبقًا من الجندي المكلف بحراسة بيبي، لأنهُ من البداية كان يُخطط لسرقة الفيزا كارت ومعرفة أرقامها السرية من الكائن الفضائي المسكين، وكانَ هروبهما سهلاً يسيرا، فلا أحد يسأل المارّة في تلك المستشفىٰ العام ماذا تريد أو إلىٰ أين أنت ذاهب.

ثمانية ركاب اكتظت بهم السيارة «البيچو» التي تحرق الطريق الزراعي حرقًا من فرط السرعة الجنونية، يجلس الكائن الفضائي في المقعد الأمامي بجوار النافذة وعلىٰ يساره التمرجي، ويجلس التمرجي في المنتصف بجوار السائق الذي يتبادل معه الحوار، ويتبادل معهُ أيضًا سيجارة حشيش مغربي أصلي، طار معها عقلي التمرجي والسائق



فوق السحاب، أما بيبي... فقد كانت الرائحة فقط كفيلة بأن يطير عقله ويتخطىٰ حاجز الغلاف الجوي.

علىٰ أبواب قرية بتول الجبل توقف السائق أمام أحد الكمائن الشُرطية النادرة علىٰ الطريق، فأشــار أمين شــرطة بيدِهِ للســائق طالبًا منه أوراق ثبوت السيارة، فما كان من الكائن الفضائي بعد أن طار عقله من جرّاء رائحة الحشيش إلّا أن أشار لأمين الشرطة مُتحدثًا:

- أنت أمين شــرطة أليس كذلك!؟ هل تعلم يا أمين الشــرطة يا عزيزي أن كوكب الأرض يحتوي علىٰ نســبة 71٪ من المياه تكفي لسكان كوكبي غيليسيا والأرض؟

ابتسم الأمين وهو ينظر إلىٰ بيبي، وأرسل له قُبلة علىٰ الهواء، ثم قال:



- «حلاوتك؛ انزل يا كابتن عشان نشوف حكاية الـ 71٪ دي»

حاول سيد التمرجي أن يُدافع عن بيبي، فقالَ للأمين:

- «في إيه بس يا باشـــا، معلش هو الراجل من كلامه يبان أهبل شوية، لكن في الحقيقة هو أهبل بجد، مساء الفل يا باشا»

رد عليه الأمين قائلاً :

- «تعالىٰ انت كمان قوللي، انتم شـــاربين حاجة!؟ تعالولي هنا انتم الاتنين وقولوا حاحا»

كم هي رائعة تلك الحاحا الأولىٰ التي خرجت من فم ســيد، فقد كانت كفيلة بالقبض عليهما وعرضــهما علىٰ حضـرة «الضـــابط النوباتشـي صـلاح بيه» فوقف كلاهما أمام الضـابط مُبتسـمين ابتسـامة



بلهاء بعيون نصــف مفتوحة، وبتفتيش ملابس بيبي عُثر علىٰ كمية لا بأس بها من المخدرات، كان سـيد قد وضـعها خلسـة في جيبه، فتوجه الضابط إلىٰ بيبي بسؤالٍ مباشر:

- «انت بتضــرب حشــيش وكمان بتتاجر؟! ده أنت باين عليك لعيب كبير أوي، ده انت وقعت ف إيد محمد بيه صلاح أقوىٰ ضابط شرطة حصل في التاريخ»

لم يسـتطع بيبي أن يُفسـر كلمات الضـابط محمد بيه صـلاح، فوضـع إصــبع الســبابة اليمنىٰ علىٰ أذنه اليمنىٰ لكي يتمكن من تشــغيل جهاز الترجمة، لكن الجهاز كان قد تأثر بشـكل جزئي بسـبب الحادث الذي وقع للكائن الفضائي...

جهاز الترجمة:

«انت بتضرب حشيش... بتضرب حشيش... سؤالٌ عادي، سؤالٌ عادي، فإذا كُنت تقوم بضرب أحد، فعليك أن... لعيب كبير... لعيب كبير... الضابط محمد صلاح.. محمد صلاح. الله علىٰ أخلاقك يا فخر العرب»

اعتقد بيبي أنها فرصة مواتية لكي يُقدم دعوة إلىٰ حضرة الضابط محمد بيه صلاح، فقال لهُ:

- حضرة الضابط محمد صلاح، هل تعلم يا كابتن أن سكان كوكب غيليسيا لديهم القدرة علىٰ لعب كرة القدم؟ وتستطيع أن تحترف من العام القادم في نادي ليفربوليسيا الرياضي!



نظر إليه الضابط نظرة مليئة بالغضب، وقال له بكلماتٍ بطيئة:

- «نعم يا روح امك!؟»

جهاز الترجمة: «روح أمك، روح أمك، كلمة دارجة في هذا المجتمع، تعبر عن حب الأم لأبنائها، والأم... الأم مدرسةٌ إذا أعددتها أعددت شعباً طيّبَ الأعراقِ، هذا الشخص يمدحك، هذا الشخص يمدحك وعليك تقديم الشكر، انتهىٰ»

ارتسمت الابتسامة علىٰ وجه بيبي وهو يقول:

- في الحقيقة يا حضرة الضابط لا يسعني الآن إلا أن أقول لك بعد كلماتك الرقيقة هذه سوىٰ أنني أشكر روح أم سيادتك.



اتسعت عينا الضابط صلاح، وانتفض من مكانِهِ واقفًا وكأن ثعبانًا قد لدغهُ من الأسفل، وصرخ بأعلىٰ صوته مناديًا علىٰ الأمين:

- «خد الاتنين دول علىٰ الحجز، الحجز اللي تحت، مش اللي فوق، سامع!؟ الحجز اللي تحت»

هنا... انتهت القصة؛ فلا يجوز الحديث عما حدث للكائن الفضائي في «الحجز اللي تحت»

« عيب... خلينا مؤدبين»

*****



عم حلاوة

في إحدىٰ الليالي الصيفية... خطرت علىٰ عقلي فكرة الصعود فوق سطح منزلنا الذي يقع علىٰ أطراف قريتنا الحبيبة «بتول الجبل» وعندما صعدتُ إلىٰ السطح ولم أجد ما أفعلهُ؛ جلستُ أرسم علىٰ الحائط لوحة جدارية؛ فرسمتُ نخلة مائلة بجوارها جمل بثلاثة أقدام، ثم اعترتني رغبة قوية في الضحك علىٰ هذا الرسم العجيب، وظللتُ اضحك وحدي كالمهووس حتىٰ رأيت في السماء ما أوقفني عن الضحك! رأيت ما يُشبه غيمة دائرية سوداء تهبط من السماء إلىٰ الأرض بالقرب من حدود القرية.

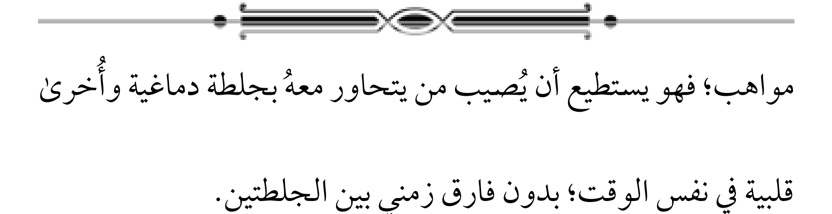
بعد عدة أيام جاء ضيفٌ إلىٰ منزلنا يسأل عن أخي الأكبر الذي يعمل في وزارة المالية ويشغل منصب عامل أول بوفيه. قام الضيف بتعريف



نفسه علىٰ أنه مندوب الوزارة لمقابلة «عم حلاوة» عن طريق وساطة أخي الأكبر، فمن هو عم حلاوة؟!

في الحقيقة لم أكن قد رأيت هذا المذكور من قبل، بل ولم أسمع عنهُ من قبل ذلك اليوم الذي رسمتُ فيهِ تلك اللوحة الجدارية المُضحكة للجمل صاحب الأرجل الثلاث، لكن الرجل أصبح ذائع الصيت في وقتٍ وجيز.

عم حلاوة... رجل تخطىٰ سن المعاش منذ وقتٍ قريب، متسول، رث الثياب، رث الخُلق، يتحدث بطريقة هي مزيج من «النحنحة والسماجة» وتظهر علىٰ ملامحه علامات الغباء بما يؤهله للتنافس مع شخصية بطل فيلم «غبي منه فيه» وقد حباهُ المولي عز وجل بعدة



مواهب؛ فهو يستطيع أن يُصيب من يتحاور معهُ بجلطة دماغية وأُخرىٰ قلبية في نفس الوقت؛ بدون فارق زمني بين الجلطتين.

يُعتبر أيضًا هذا الحلاوة بنك معلومات مُتنقل، وقد كانت كل زيارة لهُ إلىٰ أحد منازل القرية بمثابة الفاجعة العظمىٰ، فدائمًا ما يعقبها زيارة أخرىٰ من مأذون البلد لنفس المنزل، فقد كان عم حلاوة يبثُ معلوماته المغلوطة بين كل زوجين ثم يذهب ليأخذ «كوميشن» من المأذون علىٰ حالة الطلاق المؤكدة التي بذل فيها جهدًا عظيمًا للإيقاع بين الزوجين، وخاصةً الشباب، فأصبحت قريتنا صاحبة الرقم القياسي في هجرة الشباب غير الشرعية.

كذلك يستطيع الرجل أن يستخرج الأموال من جيوب أهل القرية بطريقة تسوّلية إبداعية رهيبة، فلديه من «الرخامة والرزالة والسماجة



والتناحة» ما يُؤهلهُ لتقلد أعلىٰ المناصب القيادية التسوّلية، وقد كان ذلك هو السبب الرئيسي والعامل الأكثر أهمية في زيارة مندوب الوزارة لقريتنا، إذ أن الاستعانة بهذه الطاقة التسوّلية الجبارة المكنونة داخل تلافيف جينات عم حلاوة! لسوف ترتفع معها الحصيلة المالية للوزارة بالتأكيد إذا وافق الرجل علىٰ اعتلاء المنصب الجديد.

اتفقَ أخي الأكبر مع مندوب الوزارة علىٰ أن يكون اللقاء المباشر مع العم حلاوة من أجل التعاقد معهُ في أرضٍ محايدة، والأرض المحايدة بالطبع «فوق سطوح بيتنا» وحضرتُ أنا معهم اللقاء كشاهدٍ علىٰ مراسم التعاقد، وجلسنا جميعًا علىٰ مقاعد المائدة المستديرة، ثم طلب الرجل من مندوب الوزارة تكوين حملة دعائية لشخصهُ تحت شعار «مصلحتك أولًا» لكن الشعار بالنسبة للعم حلاوة مختلف تمامًا

عن المعنىٰ المعتاد، فهو يراهُ نوعًا من أنواع من التهديد والوعيد للمواطن في ضرورة الحفاظ علىٰ مصلحته، والخوف علىٰ مصلحته، وسلامة مصلحته من كل شر.

فوق سطح منزلنا الموقر... وعلىٰ مقاعد المائدة التي لم تعد مستديرة... وافق مندوب الوزارة علىٰ الشعار سريعًا، لكنَ العم حلاوة كانَ منشغلًا أثناء الاجتماع بشيءٍ آخر؛ وقف الرجل ينظر بإعجابٍ شديدٍ إلىٰ اللوحة الجدارية المُضحكة التي كنت قد رسمتها في يومٍ أغبر، كانَ يُدقق النظر في اللوحة كأنهُ يقف أمام المرآة.

أثناء انعقاد الاجتماع فوق السطح! كان هناك اجتماع لبعض الرجال والنسوة في الشارع أمام المنزل، لكنهُ اجتماعٌ من نوعٍ آخر، اجتماعٌ من النوع «الطري» رقص وزغاريد وتفعيل برنامج اليوم العالمي للتحرش،



ومُنذُ ذلك اليوم أصـبح رقص النسـاء في شـوارع بتول الجبل مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بتعاقدٍ جديدٍ أو استحقاقٍ جديدٍ للعم حلاوة.

في بداية عمل حلاوة في وزارة المالية تقدم الرجل بمشـروع فرض ضـرائب جديدة علىٰ أهل القرية، وفي حالة تفعيلها بدون معوقات فسوف تطبق الضرائب الجديدة علىٰ قرىٰ المحافظات الأخرىٰ، يبدو أنهُ أراد الانتقام من أهل قريتنا أولًا، فكانت الضريبة الأولىٰ علىٰ غسيل الملابس الداخلية، نعم... ضريبة علىٰ غسل الملابس الداخلية فقط؛ فمِن وجهة نظر عم حلاوة أن غسـيل الملابس الداخلية هي رفاهية لا لزوم لها؛ لأنها غير ظاهرة، وعلىٰ كل مواطن أن يظهر بمظهر حسـن ونظيف أمام المجتمع، فقط لا غير، فلا حاجةَ لنا إذًا بغسـيل الملابس الداخلية في ظل أزمة المياه وخط الفقر المائي.

في هذه اللحظة... أدرك الجميع المعنىٰ الحقيقي لشعار «مصلحتك أولًا» يبدو أن (مصلحة) المواطن هي المُستهدفة من شعار عم حلاوة.

اعتقدتُ أنا شخصيًا أن أهل القرية سيرفضون هذه الضريبة العجيبة، لكن الغريب في الأمر أنهم كانوا علىٰ قلب رجل واحد. وقد كان أخي الأكبر صديق الشجرة من أشد المؤيدين والمناصرين لحلاوة، فبعد مرور ثلاثة أسابيع فقط من تطبيق الضريبة علىٰ غسيل الملابس الداخلية! خرج أخي الأكبر في تظاهرات تأييد لهذه الضريبة الجديدة، ومعهُ أيضًا في تلك التظاهرات لفيفٌ من الرجالِ والنسوة أبطال برنامج اليوم العالمي للتحرش؛ رافعين في أيديهم ملابسهم الداخلية المتسخة لكي يرىٰ الجميع كم هم موافقون موافقون موافقون.



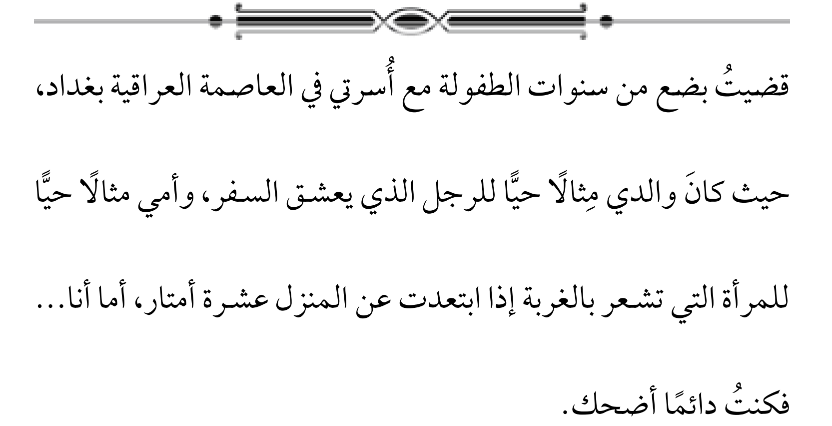
لكنني استوقفت أحد الرجال الفقراء السائرين في تظاهرات التأييد لكي اسألهُ عن حقيقة الأمر، أردت أن اسألهُ عن موافقتِهِ العجيبة علىٰ ضريبة غسيل الملابس الداخلية، فقال لي بلا مبالاة:

- «يا عم مش هتفرق... إحنا كده كده لباستنا مقطعة»

ذاع صيت عم حلاوة في أوساط المال والأعمال، بل ذاع صيته في أوساط الجهات السيادية وبعض البلدان المجاورة، وتكاثرت عليه عقود العمل من بلاد الفرنجة وبلاد الواق الواق وبلاد تركب الأفيال، فقد حقق الرجل نجاحًا مذهلاً، إذ أنهُ _والحق يقال_ قد جعل أهل القرية يسيرون في الشوارع بدون ملابس داخلية! ورغم ذلك يؤيدونه.

*****

الولد الوحيد



قضيتُ بضع من سنوات الطفولة مع أُسرتي في العاصمة العراقية بغداد، حيث كانَ والدي مِثالًا حيًّا للرجل الذي يعشق السفر، وأمي مثالًا حيًّا للمرأة التي تشعر بالغربة إذا ابتعدت عن المنزل عشرة أمتار، أما أنا... فكنتُ دائمًا أضحك.

أقلعت بنا الطائرة من عاصــمة الحضــارة وحطت في عاصــمة بلاد الرافدين، غمرتني سعادة الطفولة بالشوق للدراسة في مدرسةٍ أُخرىٰ في مدينةٍ أُخرىٰ، أو أيًا من الأشــياء الأخرىٰ، وكأني ذاهبٌ في رحلةٍ إلىٰ الفضــاء الخارجي، فلما اكتشــفت أن هؤلاء العراقيون يشــبهوننا في تعاملاتنا اليومية! كنت فقط... أضحك.

كنا قد وصلنا بغداد قبل بداية العام الدراسي بأيام قليلة، وعلىٰ عجالة ودون استفسارات كثيرة وجدت نفسي تلميذًا في أقرب مدرسة لمنزلنا،



ويشاء السميع العليم أن تكون هذه المدرسة مخصصة للفتيات فقط، فوجئ أبي وصـــديقه الذي ألحقني بمدرســـة الفتيات، وفوجئت أنا بالطبع، فغضب أبي غضبًا شديدًا وهرول إلىٰ المدرسة ومعهُ صديقهُ، وهرولت أمي معهم هيَ الأُخرىٰ، أما أنا... فجريتُ خلف الجميع، لكنني من فرط غرابة الموقف! كنت فقط... أضحك.

اجتمع مجلس قيادة الأســـرة بعد أن توصـــل أبي إلىٰ حلٍ مع إدارة المدرســـة ليُرضـــي جميع الأطراف المعنية، وهو أن عليَ إكمال العام الدراسي، ولا شيء غير ذلك.

استقبلني الصف الرابع الابتدائي بفتياته ومدرساته بأعين مفتوحة إلىٰ ما فوق الحاجبين، وشعرتُ وقتئذ كأنني كائنٌ فضـائيٌ جاء من كوكبٍ آخر، وكنتُ كلما شاهدتُ جحاظة أعينهن! كنت أيضًا... أضحك.

لم أكن أعلمُ شــيئًا وقتها عن الحرب العراقية الإيرانية، ووجدت المدرســة تتحول صــباحًا إلىٰ ثكنة عســكرية، بعض الجنود ومعهم قائدهم «المقدم رشــيد» الذي يقود بنفســه عملية رفع العلم والنشــيد الوطني؛ مع التزام الطالبات برفع أصواتهن عاليًا في غناء النشيد كأننا في دار الأوبرا، «ســوبرانو» كان يفعل في الأمعاء فعل المغص، نعم... المغص، فتمالكتُ نفســي من الضــحك مُرغمًا، حتىٰ جاء اليوم الذي نَقلت لي مديرة المدرسة خبرًا برغبة المقدم رشيد في أن أقوم أنا بعملية رفع العلم؛ بما أنني الولد الوحيد في المدرســة، فوافقتُ علىٰ الفور، ولم أكن أعلم أن رفضــي أو موافقتي لا يعنيان شــيئًا من الأســاس، ثم حدثتني المديرة عن التعليمات التي تقتضــي رفع العلم من أســفل

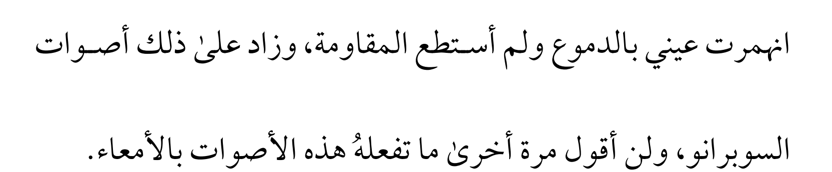


الصاري إلىٰ أعلاه في مدة دقيقة كاملة، تتزامن مع غناء النشيد بصوت الفتيات، ذلك السوبرانو الذي لهُ علاقة بمغص الأمعاء.

في اليوم التالي؛ اصطفت الفتيات الصغيرات والمدرسات الآنسات في طابور الصباح، ثم صاح المقدم رشيد صيحة وكأنها إعلان الحرب، أعلن عن بدء عملية رفع العلم وأشار إلي بإشارةٍ قويةٍ فتقدمت، وبدأت أنا برفع العلم في حركةٍ بطيئةٍ مملة تتزامن مع غناء النشيد، ولكن!

آهٍ من ولكن هذه...

كنتُ أقف أمام العلم مباشرةً وأرفع رأسي، وإذا بأشعة الشمس تخترق قرنية عيني اليمنىٰ، وذلك لأنني أغلقت اليسرىٰ، مما أدىٰ إلىٰ أن



انهمرت عيني بالدموع ولم أستطع المقاومة، وزاد علىٰ ذلك أصوات السوبرانو، ولن أقول مرة أخرىٰ ما تفعلهُ هذه الأصوات بالأمعاء.

مرَّت عليَ دقيقة رفع العلم وكأنها من الزمانِ دهرًا، وما أن انتهيتُ حتىٰ وجدت الطالبات والمدرسات والمديرة في حالةِ انهيارٍ تامٍ من البكاء، رأيتُ بعض المدرسات وقد انفجرت من أعينهن شلالات نياجرا، فقد تأثر الجميع ببكاء الطالب المصري الجديد الذي يبكي بعينٍ واحدة، ذلك الطالب المتأثر بشعارات الوحدة والحرية والاشتراكية مع رفع العلم، فقد اعتقد الجميع أنني متأثر بكلمات النشيد الوطني بالرغم من أنني لم أكن أفهم كلمة واحدة من هذا النشيد، والحق أقول... أن السبب وراء دموعي هي الشمس وسوبرانو النشاز.

كِدّتُ أضحك وأنا أرىٰ أماميَ هذا المشهد، وخشيتُ أن يُفتضح أمري ويعلم الحاضــرون ســرّ دموعي، وحتىٰ أتمالكُ نفســي من الرغبة في الضـحك؛ حاولتُ تذكر أي شــيء يشـعرني بالحزن حتىٰ تتغير ملامح وجهي الضــاحك، حاولتُ تذكر خبر وفاة جدتي منذ أعوام؛ لكنني لم أشعر بالحزن لأنني لا أعرفها أصلًا، خطر علىٰ بالي جدي الذي سقط تحت عجلات القطار... لم أشــعر بالحزن عليه لأنه كان بخيلًا، فلم يكن يعطيني «العيدية» المناسبة في الأعياد.

وجدت الحل أخيرًا... اســتخدمتُ كل قوىٰ البؤس التي شــاهدتها في أفلام الأبيض والأســود الكئيبة التي أرغمتني والدتي علىٰ مشــاهدتها، فاستدعيتُ كل لحظات الحزن والبكاء من فيلم بداية ونهاية، ورسمتها علىٰ وجهي بالرغم من عدم فهمي لأحداث الفيلم، وبذلـتُ جهودًا

عظيمة في تَذكُر لحظات النكد وتقمصـها من فيلم دعاء الكروان، «وين هنادي يا اماي» وأخيرًا تغيرت ملامح وجهي مع الرد «هنادي راحت في الوبا» فاسـتطعتُ بذلك أن أقوم بدوري علىٰ أكملِ وجه حتىٰ انتهىٰ هذا اليوم الدراسي العجيب، وحين وجدت نفسي وحيدًا في منزلي...

انفجرتُ ضاحكا.



زواج صالونات

سارت الأمور وفق الخطة التي وضعتها لهذا اليوم المميز في حياتي، فأنا شاب دقيق للغاية، أحسب حساب كل خطوة قبل أن أخطوها، هكذا تعلمت أثناء دراستي الطويلة وما تلاها من عمل في بنك رفيع المستوىٰ.

كانت الساعة تشير إلىٰ السادسة عندما انتهيت من ارتداء بدلتي الفاخرة التي اشتريتها خصيصًا لهذه المناسبة، فقد اختارت لي أمي عروس من أسرة عريقة، تعرَّفَتْ علىٰ أمها في نادي بتول الجبل الذي يقضون فيه أوقات فراغهم، وهكذا أوكلت أمر زواجي لأمي، فليس لدي وقت كاف لأتفقد أحوال البنات وأتخير منهن من تصلح لي زوجة، كما أن لي تجربة ليست مشرفة من محاولة الزواج من ابنة عمي، وكذلك لأنني أثق في رأي أمي وذوقها ثقة كبيرة.



ما زال أمامنا من الوقت ســاعتان تبقيتا علىٰ موعدنا مع أهل العروس، والمسافة بين بتول الجبل والعاصمة تستغرق نصف الساعة في حالة انسـياب المرور، ولكن وفي طريقنا سـنقضـي بعض الأمور الهامة؛ سـتتوقف لشـراء هدية وبعض الحلوىٰ لزواج الصـالونات من أحد المحال علىٰ الطريق الزراعي.

انتهيت أنا ووالدتي من تجهيزاتنا، وقبل أن نتحرك رن هاتفي، وكان علىٰ الجانب الآخر رئيس مجلس إدارة البنك الذي أعمل به يطلب مني عملا ضروريا لن يستغرق سوىٰ نصف الساعة، ولم أستطع التملص مما أوكله إلي، فطلبت من أمي أن تذهب إلىٰ منزل العروس كيلا نتأخر عن الموعد، وسوف ألحق بها بمجرد انتهائي من عملي.

كانت الســـاعة تدق الثامنة عندما وقفت أمام الباب منتظرا أن تفتح لي العروس فألتقيها للمرة الأولىٰ، ولكن لم يحدث ما خططت له، فتح الباب أحد الخدم، وكان جميع أهل المنزل في الانتظار، دخلت حاملا علىٰ يدي علبة شوكولاتة غالية الثمن تناولتها سيدة المنزل، فسلمتُ علىٰ الحاضرين ووقفت طويلا أمام عروسي الفاتنة التي بدت في أبهىٰ صورها، كانت تشبه أميرات القصص، لكن ما شغل بالي حينها أنني لم أجد أمي، وتعجب أكثر عندما ســـألتني والدة العروس عن ســـبب تأخر الأسرة، حاولتُ الاتصال بأمي لكن الهاتف كان مغلقا، وسرعان ما انشـــغلت بعروســـي التي أبهرتني بجمالها، وأثناء انشـــغالي بجمال الفتاة الحسناء رن هاتفي فأسرعت بالرد:

- أمي، انتي فين؟ أنا وصلت بيت العروسة؟



لم يســمع أحد من الحاضــرين بماذا أجابتني أمي لكن الشــيء الذي أصـاب الجميع بالقلق هي تلك النظرة الذاهلة التي بدت علىٰ وجهي، بعدما أغلقت الخط...

نظر إلي الجميع ذاهلين بعدما وضــعت الهاتف علىٰ المنضــدة ولم أنبس ببنت شـفة، لكن علامات التعجب أخذت ترتســم وتتسـع علىٰ وجه سيدة المنزل التي تجلس بجوار زوجها.

كان ســيد المنزل يرمق زوجته بنظرات خاطفة ثم يتوجه بنظرِه إلي، وقبل أن يتحدث سبقته زوجته فسألتني قائلة:

- أنت كنت بتكلم مين في الموبايل يا بني؟ كنت بتكلم مامتك؟

أومأتُ برأسه دون أن أتكلم، فبادرتني السيدة لتتأكد:



- أنت متأكد يا بني إنك كنت بتكلم مامتك؟

أعدتُ هز رأسي موافقا، لكن الرجل نظر إلىٰ زوجته غاضباً ثم قال:

- من أولها كده! هو انتي مش قولتيلي إنه بقىٰ كويس دلوقتي؟

فتوجهت السيدة بنظرها إلىٰ وجهي المذهول وقالت لي:

- طيب يا بني معلش... هو انت شفت مامتك انهارده؟

فأومأت برأسي مرة أخرىٰ، لكن السيدة قامت من مقامها وقالت وهي لا تكاد تسيطر علىٰ نفسها:

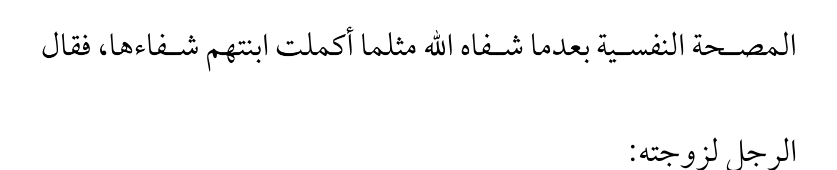
- يا بني حرام عليك... متعملش في نفسك كده... مامتك الله يرحمها ماتت ودفناها السنة اللي فاتت.



هنا... جاء موعد الابتسامة البلهاء، فأومأت برأسي موافقا مرة أخرىٰ، لكن الرجل سيد المنزل ابتعد عنهم وقام بإجراء اتصال هاتفي لم يأخذ فيه الكثير من الوقت، أنهىٰ حديثه الهاتفي وقال لي:

- طيب تمام يا بني... خليك قاعد شويه.

مضىٰ من الوقت ما يقارب نصف الساعة وهم يجلسون في صمتٍ مطبق، حتىٰ فاض الكيل بالرجل فوقف يتحدث إلىٰ زوجته ويعاتبها، فقد قالت له زوجته أن ابنتهم أثناء فترة علاجها في المصحة النفسية تعرفت علىٰ شاب، كان يقضي فترة علاجه في المصحة أيضًا، وهو يريد أن يتقدم لخطبة ابنتهم، وأنه كان متعلقا بوالدته التي توفيت منذ عام... ويهيأ له أن والدته تبحث له عن عروس، لكنه خرج مؤخراً من



المصـحة النفسـية بعدما شـفاه الله مثلما أكملت ابنتهم شـفاءها، فقال الرجل لزوجته:

- كويس كده؟ أهو لسه مجنون زي ما هو، يعني بعد كل الصبر ده نجوز البنت المجنونة لواحد مجنون؟

ساورني الشك حينئذ أنني قد أكون مريض نفسـي بالفعل، وأن والدتي توفيت منذ عام، فاسـتحالت ابتسـامتي إلىٰ ضـحكات هسـتيرية، وأن العروس التي أتقدم لخطبتها مريضـــة نفسـيًا، إلىٰ أن دق جرس باب المنزل، فقام الرجل في هدوء واقترب مني، ربت علىٰ كتفي ثم ذهب وفتح الباب، فإذا بثلاثة رجال يمســكون بقميص أبيض اللون، مغلق من الأكمام، حاولوا أن يلبســوني هذا القميص بينما حاولتُ أنا مقاومتهم.



وقبل أن أستسلم لهم دق جرس الباب مرة أخرىٰ، ذهبت المرأة وزوجها ليروا من بالباب، فإذا بسيدة محترمة المظهر تقول لهما:

- معلش... لاموآخذة... أصلنا كنا جايين نخطب بنت جيرانكم اللي في الشقة اللي جمبكم... والظاهر ابني غلط وجه عندكم... هو ابني فين؟

في تلك اللحظة وأثناء مقاومتي للرجال الثلاثة؛ أخذتُ أصيح في وجه الجميع: متصدقوهاش... أنا فعلاً مريض... وعايز اتجوز بنتكم المريضة... إحنا لايقين علىٰ بعض.

*****

الافتخار والافتخار المضاد

ذات صــباح... اســتيقظت من النوم كأي مواطن مصــري يســتيقظ في صــباح يوم العطلة الرســمية مُتأخرًا عما قد اعتاد عليه، كان اســتيقاظًا جميلًا كســولا، كم هو رائعٌ هذا الكســل اللذيذ حينما تُحدِّقُ عيناكَ في اللا شيء، مع تلك الابتسامةِ البلهاء التي يصاحبها شعوري بالافتخار؛ فأنا العبد الفقير إلىٰ الله أحصل علىٰ يومين عطلة أسبوعية بدلاً من يوم واحد، لأنني أعمل في بنك، إنهُ مزيجٌ رائعٌ ومُريح.

فجأة؛ انتفضــتُ من مكاني انتفاضــة أكثر عظمة من زلزال ١٩٩٢، فقد أفزعني صـوتٌ شـبيه بِصـوت صـافرة قطار الإسـكندرية، وعندما أفقت وتنبهتُ للأمر، أيقنتُ أنني ظلمت قطار الإســكندرية، فلم يكن هذا الصوت إلّا صوت زوجتي الحبيبة قائلة:



«يا راجل قوم بقىٰ إحنا بقينا الضهر، يلا قوم جهّز نفسك

عشان فرح حماده»

فأجبتُ أنا الفقير الىٰ الله:

«طب أنا هعمل إيه يعني عشـــان فرح حماده! أجهّز إيه

يعني عشان فرح حماده ! هو انا هرقص في فرح حماده؟»

زوجتي الحبيبة:

«يا راجل قوم شـــوف هتلبس إيه! أنت مش بتقول إنك

جايب بدلة بـ ٣٠٠ جنيه عشان الظروف اللي زي دي؟»

الفقير الىٰ الله:

«لا؛ لو سـمحتي خدي بالك من كلامك... أنا جايب البدلة بـ ٤٠٠ جنيه»

زوجتي الحبيبة:

«طب يلا عشـان مفيش وقت، خد بالك أن فرح حماده معمول في فندق خمس نجوم ومش عايزين فضـايح! واوعىٰ تقول لي نروح بالعربيه الفيات بتاعتك! ياي! دي عربية معدومة البريستيچ! إحنا هنروح بالعربية المرسيدس بتاعة أخويا سعيد»



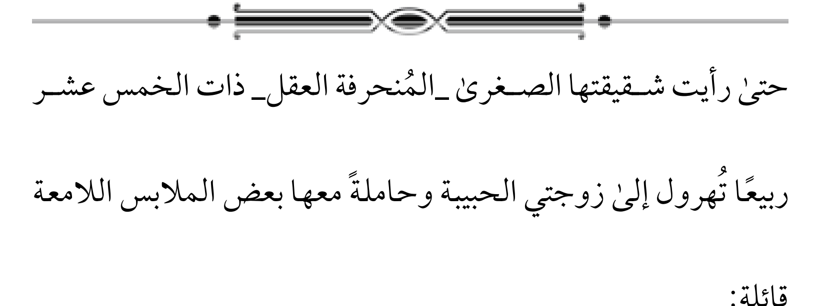
الفقير إلىٰ الله:

«مرسيدس إيه وأخوكي إيه! سعيد أخوكي بيشتغل ميكانيكي، والمرسيدس دي عربية زبون عنده! علىٰ إيه الفشخرة دي؟»

نَظَرَتْ زوجتي الحبيبة إلىٰ وجهي... لا... لن أتحدث عن تلك النظرة المليئة بالغضب والغل والرغبة في الانتقام، ولن أتحدث عن حالة الفزع التي انتابتني حينما قالت لي بكلماتٍ بطيئةٍ ورصينة:

«هتقوم تشوف وراك إيه عشان الفرح ولا...؟»

أدركتُ وقتئذ أنني يجب أن أُنفذ رغبة زوجتي الحبيبة، وذهبتُ إلىٰ غرفتي وأحضرت من خزانة الملابس شيئًا ما، وخرجت، ثم عدّتُ إلىٰ المنزل في الخامسةِ مساءً، وارتديتُ ملابسي فكنتُ أولُ الجاهزين،



حتىٰ رأيت شـقيقتها الصـغرىٰ _المُنحرفة العقل_ ذات الخمس عشـر ربيعًا تُهرول إلىٰ زوجتي الحبيبة وحاملةً معها بعض الملابس اللامعة قائلة:

«بُصـي بُصـي جبت لك ايه! الفسـتان السـواريه ده بيتأجر من الأثيليه اللي علىٰ أول الشـارع بـــ٨٠٠ جنيه بس في الليلة، وده... بـ ٩٠٠ بس»

نَزَلَتْ كَلِماتها عليَّ كالصاعِقة، وجلستُ علىٰ المِقعد الذي هوَ خلفي، ثم قُلتُ لشقيقتها بصوتٍ تغلب عليهِ أعراض الجلطة القلبية:

«ليه كده حرام عليكي، ٩٠٠ جنيه إيجار فسـتان في الليلة ليه! هو انتي العروسة!»



فقالت زوجتي:

«أنت مش واخد بالك أن فرح حماده هيكون فيه ناس كبار؟»

الفقير:

«ومالو يا حبيبتي ما انا برضــو كبير، ده انا عندي تلاتين ســنة، وبعدين انا عايز أعرف لزمتها إيه المصــاريف دي كلها؟»

ردت شــقيقتها الصــغرىٰ علىٰ هذا الســؤال ردًا قاطعًا، فقالت لي وصوتها ممتلئٌ بالثقة:

«عشان الفشخرة»

ثم تدخلت زوجتي قائلة:

«مش انت كمان جايب بدلة بـــ ٤٠٠ جنيه عشـــان تتفشخر؟»

الفقير إلىٰ الله:

«لا... لا يا حبيبتي أنا جايبها ب٤٠٠ دولار مش جنيه، إنتي نسيتي!؟»

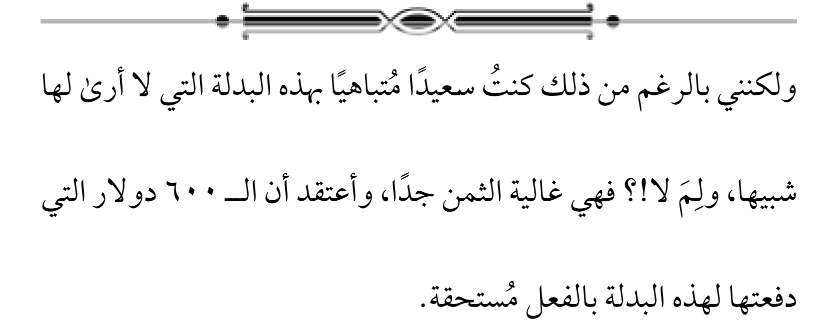
جلستُ في انتظار زوجتي الحبيبة وشقيقتها المُنحرفة العقل، وأنا أدعو الله ألا يُكملّن ارتداء ملابسـهن قبل صـباح اليوم التالي، فالحقيقة أنني لا أُحب الأفراح التي علىٰ هذه الشـــاكلة، فأنا أعرف العريس جيدًا، جاري العزيز وزميلي في العمل حماده، موظف بســيط في نفس البنك الذي أعمل به، لا يملك من حُطام الدنيا شــيئًا غير أحلامه بالزواج،



وبالطبع لا يعرف ماهية الكوارث المستقبلية التي سيواجهها من جرّاء هذه الشراكة الاجتماعية الجحيمية، وأعرف أيضًا أهل العروس، فهم أُناسٌ بُسطاء من أهل بتول الجبل؛ والد العروس تاجر خُردة ، ولم أرهُ يومًا إلا «بالجلابية البلدي» فلماذا إذًا هذا الفندق ذو النجوم الخمس!

كانت المرسيدس من نصيبنا، وخرجنا من بتول الجبل ووصلنا قاعة الأفراح الفندقية في العاصمة، واعتقدتُ أنني سأُبهر الحضور بهذه البدلة التي تكلّفت ٥٠٠ دولار، ولكن... يا لهول ما رأيت!

اكتظت القاعة بعشرات فساتين السهرة المليئة «بالتراتر» اللامعة والزجاج المُلوّن والمعادن البرّاقة، أو قد تكون أشياءٌ أُخرىٰ فأنا لستُ خبيرًا، ورأيتُ الرجال في القاعة كأنهم في حفلٍ رسميٍ لتنصيب جلالة الملك، حتىٰ والد العروس يرتدي زيًا رسميًا وكأنهُ رئيس الوزراء،



ولكنني بالرغم من ذلك كنتُ سعيدًا مُتباهيًا بهذه البدلة التي لا أرىٰ لها شبيها، ولِمَ لا!؟ فهي غالية الثمن جدًا، وأعتقد أن الـ ٦٠٠ دولار التي دفعتها لهذه البدلة بالفعل مُستحقة.

تكاثر الحضـور حول العريس يُباركون ويُهنئون ويتزاحمون وكأنهم في طابور الجمعية الاستهلاكية في ثمانينيات القرن المُنصرم، وبالطبع لم أذهب لتهنئة حماده وسـط هذا الزحام خوفًا علىٰ البدلة، فحاولتُ أن أتباهىٰ وأتفاخر بما أرتدي، لكنني لم أجد من أتفاخر عليه غير رجل واحد بين السـادة الحضـور، كان الوحيد الذي يرتدي «بنطلون چينز» وقميص أبيض بسيط، فذهبت إليه مُباشرةً مهنئًا ومُحدثًا إياه:

« أهلاً وسهلًا... ألف مبروك»



صاحب القميص الأبيض:

«أهلًا بيك، الله يبارك في حضرتك»

الفقير:

«أنت بقىٰ من أهل العريس ولا من أهل العروسة ؟»

صاحب القميص الأبيض:

«أنا أعرف حماده العريس كويس أوي، وعايز أروح أهنّيه واسلّم عليه، تعالىٰ معايا لو عايز»

الفقير:

«أنا فعلاً كنت عايز أروح اسلّم علىٰ حماده، لكن بصراحة خفت علىٰ البدلة بتاعتي تتبهدل، أصلها كلفتني ٩٠٠ دولار»

صاحب القميص الأبيض:

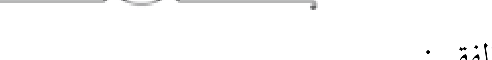
«إيه اللي بتقولو ده يا سيد يا محترم! يعني إيه مش عايز تروح تسلم علىٰ العريس عشان خايف علىٰ حتة بدلة! ولما أنت خايف علىٰ بدلتك كده بتيجي الفرح ليه أصلاً؟»

الفقير:

«يا أخي لو عايز تروح أنت!؟ روح! أنت هدومك عادي يعني، متقلقش متقلقش، روح روح»

صاحب القميص الأبيض:

«أنا فعلاً هروح أبارك للعريس، لكن إزاي يا مواطن أنت تجيب بدلة ب٩٠٠ دولار وفي ناس في بلدك مش لاقيين يجيبو تيشيرت بـ ١٠٠ جنيه، ده اسمه افترا يا محترم»



الفقير:

«أنا قلت دولار!؟ انا مقولتش دولار! ٩٠٠ جنيه يا أستاذ مش دولار»

صاحب القميص الأبيض:

«خلاص يا أستاذ، أنا رايح أبارك لحماده، سلام»

ذهب الرجل مباشرةً إلىٰ العريس وبارك لهُ بحرارة وانصرف في هدوء، فذهبتُ بدوري إلىٰ حماده العريس وباركت لهُ سريعًا، وسألتهُ عن ذاك الرجل صاحب القميص الأبيض.

الفقير: «مين يا حماده الجدع اللي لابس بنطلون جينز في الفرح ده؟»



حماده العريس: «ده أحمد بيه، الرئيس الجديد لمجلس إدارة البنك اللي احنا بنشتغل فيه»

الفقير: «أحمد إيه! رئيس فين! بنك مين! إزاي يعني!»

قفزتُ مُسرعًا إلىٰ الخارج كي أجد هذا الشخص غريب الأطوار وأشرحُ لهُ الحقيقة بصدق، وجدتهُ قُرب باب الفندق، فأوقفته واعتذرت لهُ قائلًا:

«لحظة يا أحمد بيه لو سمحت، أنا هقولك الحقيقة وصدقني ده آخر كلام، البدلة دي كانت عندي في الدولاب، أصلها بتاعة أبويا الله يرحمُه وانا قيفتها عند الترزي وكلفتني ٧٥ جنيه بس»

المواطن حسنين

استرق الأستاذ «حسنين» من الزمن نصف ساعة؛ قرر أن يذهب إلىٰ «البدال» ليقوم بصرف الحصة التموينية المدعمة التي توفرها لهُ الحكومة -رعاها الله- من سكر وزيت وأرز وسمن ودقيق وشاي وصابون ومسحوق غسيل ومكرونة وصلصة ونسكافية ونوتيلا وغذاء ملكات النحل، بالإضافة إلىٰ البامبرز بالطبع.

وقف الأستاذ حسنين أمام البدال بكل الأمل وعزّة النفس والصبر الجميل في انتظار الحصة التموينية، يفكر في هذا الكم الهائل من السلع الغذائية والاستهلاكية التي ينوء علىٰ حملها العُصّبةِ أُولي القوة، واستهلك من الوقت ما يقرب من خمسة عشر دقيقة حتىٰ تقلص عدد الواقفين في الطابور أمامهُ من ثلاثة عشرة رجلًا إلىٰ اثني عشر رجلًا فقط، لكنهُ لم ير في ذلك ما يُزعج، فهو يعلم أن العدد الحقيقي لمن



يستحقون الدعم أكثر من مئة مليون مواطن، فلا بأس من الانتظار بضع دقائق أخرىٰ.

كان الأستاذ حسنين مُرهقًا من السهر في الليلة السابقة مع جاره الأستاذ «صابر» وضبط نفسه متلبسًا بالنوم واقفًا أكثر من مرة، نظر إلىٰ ساعته ليكتشف أنه قد مرّ علىٰ وقوفه ما زاد عن نصف الساعة، والصف يبدو علىٰ تمامه؛ لم يتحرك منه أحدٌ بعد.

اشرأبَّ بعُنُقِهِ ليرىٰ ما السبب وراء هذه العَطَلَة، ليجِد التاجر مُنشَغِلًا بترتيب بضائع يبدو أنها قد جاءت وهو غافٍ في الصَّفِّ كما الخيل، الأمر الذي زاد من توتره، فهو يريد اللحاق بصلاة العصر في مسجد الحارة حتىٰ يلتقي بـ «هشام باشا» راجيًا إياه بأن يكون واسطة خير لدىٰ معارفه من «الناس المهمين» فولده الصغير بحاجة إلىٰ إجراء



عملية جراحية مُكلفة، ويأمل حسنين في الحصول علىٰ أوراق اعتمادها علىٰ نفقة الدولة من خلال وساطة هشام باشا.

استرعىٰ انتباهه جلبةً طرأت علىٰ المصطفين، فاشرأبّ بعنقه ثانية ليرىٰ «عطية البدال» وقد وقف علىٰ رأس الصف مستلمًا البطاقة الأولىٰ من صاحبها، وما هي إلا ثوانٍ حتىٰ تفرّعَ الصف من أمامه في همجية إلىٰ صفين ثم إلىٰ ثلاثة، واستقر أخيرًا إلىٰ أربعة صفوف، وكان أول المُستبقين لأدوارهم في الطابور هو المدعو «وديع»

اندفع وديع مستبقًا دوره في الطابور، هذا هو اسمه كما سمعه حسنين عندما تلقىٰ وديع مكالمة بالخطأ، فراح يصيح:

- «لا يا سيدنا أنا مش عبد السميع، أنا وديع. النمرة غلط»



مد وديع يده بالكارت إلىٰ عطية، فوضــعهُ الأخير بالماكينة ومن ثم أعاده إليه قائلًا:

- «البطاقة موقوفة، حضــرتك خارج مظلة الدعم، خرجت في تصفية الفواتير»

وديع مندهشًا:

- «فواتير!؟»

فقال له عطية البدال وقد علت وجهه ابتسامة حمقاء:

- «حضـرتك مثلاً بتشـحن أكتر من مئة جنيه موبيلات، أو بتدفع كهرباء شــريحة عالية، وغيره وغيره... بقىٰ قادر تعمل ده كله وجاي تاخد تموين!؟»

وديع:

- «يا عالم فواتير ايه! أنا عمري ما كان عندي عداد، أنا بطاقتي فرد واحد، إقامتي أغلبها عند قرايبي، معنديش عداد ولا فواتير! معنديش معنديش، وشحن باقة مكالمات وباقة نت بالعافية مئة جنيه تخليني متواصل مع الدنيا ولو بالكلام»

تدخل حسنين ناصحًا:

- «عليك وعلىٰ وزارة التضامن يا أستاذ وديع... مكتب الرشاوي... قصدي الشكاوي... مكتب الشكاوىٰ»

اندفعت صبية صغيرة بالكاد تجاوزت سن الطفولة نحو وديع بمجرد خروجه من الطابور، واقتربت بفمها من إحدىٰ أذنيه وكأنها ستسِرُّ لَهُ، لكنها ابتعدت قليلاً وقالت بصوت بدا أنها تعمدت أن يكون مسموعًا



للمحيطين بها من سكان الطابور، وكأنها هي نفسها مزروعة وزملاء لها بالقرب من الطابور للقيام بمهامٍ محددة! فصاحت الصبية:

- «يا عم وديع... «الشـيخ علاء» في العمارة بتاعته بيوزع شـنط فيها كل الحاجات اللي ممكن تاخدها من هنا، بلاها تموين الحكومة... بلاها مذلة الحكومة! الشـيخ بيوزع محبة في الله، هو بيقول الناس كلها أخوه!»

أكملت الصبية بصوتٍ عالٍ بعد أن ابتعد عنها حسنين مُتوجّسًا:

- «بس خلي بالك... في مدخل عمارة الشـيخ علاء في جمعية شـرعية، خلي بالك متدخلش، مش بيوزعوا زيت وسـكر، بيلموا تبرعات لبناء مسجد»

انصـــرف وديع وتبعه غير قليل ممن ملوا الانتظار في الطابور، أو ممن طمعوا في المزيد، واتجهوا جميعًا حيث أشـــارت ســنية، وفي غفلة من القائمين علىٰ مراقبة الطابور وخاصة عميدهم حسنين، انسل المدعو «رفاعي» ليواجه البائع عطية، وفي خفة وسرعة حركة دس يده في جيبه، فأخرج ورقة مكتوب عليها حاجياته التي يطلبها.

تناول عطية البدال ورقة رفاعي بعدم اهتمام، قرأ ما فيها أيضًـــا بعدم اهتمام، ثم تمتم:

- «ايه دا يا سيدنا الافندي؟»

رفاعي:

- «دي الحاجات اللي أنا عايزها، لو فيه فرق فلوس؟! أدفعه»

عطية:

- «فرق إيه وهباب إيه، الجدع دا مجنون باين عليه!»

اســتدار عطية ممســكًا بالورقة ومتجهًا للداخل مخاطبًا رجل يجلس أمام مكتب خشبي متواضع:

- «يا ريس يا ريس.. في واحد اســمه رفاعي كاتب ورقه بيقول دي حاجات طالبها... بس مش سكر وزيت»

وضــع الرجـل الجـالس خلف المكتـب منظـار القراءة ثم قرأ ورقـة طلبات رفاعي:

«السراب» نجيب محفوظ

«أرخص ليالي» يوسف ادريس

«التعادلية» توفيق الحكيم

ابتسم الرجل نصف ابتسامة ساخرة، ثم قال:

- «اسمه رفاعي إيه... هات الواد ده... دخله هنا بسرعة»

انحنىٰ رفاعي ليمر نحو الداخل، ابتلعه الفراغ والظلام خلف البضائع، وعاد عطية لمواصلة عمله، ثم انتظم الطابور وتسارعت وتيرة التقاطر وكاد حسنين أن يصل، فلما كان علىٰ مسافة يسمع عطية صوته! سأله حسنين عن المدعو رفاعي؛ ذلك الغائب بالداخل، لماذا لم يخرج!؟ وما مشكلته!؟... فأجابهُ عطية:

- «ادعي ربنا ينجيه... ده لو ربنا كرمه! مصيره يكمل في مستشفىٰ العباسية»

بعدما اختفىٰ المدعو رفاعي! توجه عطية البدال بسؤال إلىٰ الرجل المريب الجالس خلف المكتب عن محتويات الورقة التي قدمها لهُ،



وما هي تلك المسـميات الغريبة العجيبة المُريبة «السـراب والتعادلية» وهل هي سلع تموينية كالسكر والزيت والأرز؟ فأجابه الرجل:

- «سـلع تموينيـة إيـه يـا جـاهـل... دي بعيـد عنـك قنـابـل ومتفجرات»

كـانَ الجهل والغباء قد اسـتوطنا في عقل عطية البدال بلا منازع، لم يعرف الفرق بين السـلع التموينية وقائمة الكتب في ورقة محتويات طلبات رفاعي، بل اعتقد أن نجيب محفوظ ويوسـف إدريس وتوفيق الحكيم هم شـركـاء رفـاعي في العمليـات الإرهـابيـة المُحتملـة التي سيستخدمون فيها القنابل والمتفجرات.

تطوع بالإفتاء في أمر رفاعي غير قليل من سكان الطابور، كلٌّ يتكلم بما لا يملك الجزم بِهِ ولا دليلٍ يؤيده، وانتبه الجميع لصـوت جاء من

مؤخرة الطابور؛ مواطنٌ انضــم للطابور مؤخرًا أقســم أنه رأىٰ بعينيه رجلًا مُكبلًا ومعصــوب العينين يخرجونه بعض الرجال بالقوة من الباب الخلفي لدكان البدال، وقد زجّوا به في سـيارةٍ سـوداء وانطلقت إلىٰ أحد الشوارع الجانبية، فقاطعهم عطيه بصوتِهِ الأجش:

- «يـا نـاس افهموا... رفـاعي كـان معـاه ورقـة فيهـا قنـابـل ومتفجرات»

هنا... خرج حسـنين من الطابور خائفًا ومُتعللًا بأنهُ نسـي بطاقة الدعم في المنزل بعد ما سـمع كلمات عطية البدال «قنابل ومتفجرات» وقرر العودة إلىٰ بيتِه بخفي حنين وهو يردد:

«يا ليلة سـودا... قنابل. يا ليلة طين... متفجرات. يا ليلة سـودا... قنابل. يا ليلة طين... متفجرات»

فِي طريقِهِ مرَّ أمام محل الجزار، رمق فخدة اللحم المُعلّقة بنظرةِ احتقارٍ وتابع خطواتِهِ واثقُ الخطوةِ يمشي ملكًا، ثم مرَّ ببائعِ العصير، رائحة المانجو جعلتهُ يرغب بالسباحة فِي نهرٍ من عصيرها، لكن رائحة أكوام القمامة المجاورة قد وقفت حائلًا بينه وبين عصير المانجو، تلك الأكوام القذرة العالية التي تقف شاهدة علىٰ العصر بالقرب من الجزار وبائع العصير، فهي علامة مميزة وإحدىٰ مظاهر نضال بائع العصير والجزار معًا.

حين اقترب من المنزل تداخلت الأصوات الآتية من الباعة الجائلين، أطرب أذنيه صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ، وصك مسامعه ذلك الصوت الذي طغىٰ علىٰ صوت الشيخ عبد الباسط آتيا من آخر يحمل نفس الاسم: «هاتي بوسة يا بت... هاتي حتة يا بت»

قبل أن يصعد إلىٰ شقتِهِ؛ أسرع الخطىٰ بجوارِ جمعٍ من الرجال والنسوة والأطفال يتراقصون في الشارع أمام منزِلِهِ فيما يبدو أنه حفل زفاف أو ما شابه، وما لفت انتباهه أن هؤلاء القوم يرقصون علىٰ أنغامٍ شاذةٍ مع صوتٍ غليظ يقول ويكرر: «الله الله الله»

جلس علىٰ الأريكة المقابلة لباب شقته، والتي تعلوها نافذة تطل علىٰ الشارع الرئيسي، بينما وقفت زوجته «سعاد» تسأله:

«مالك يا حسنين؟»

«جالك صداع من مشوار التموين؟»

«معلش...»

«ربنا يتوب علينا»



نطقت سعاد بتلك الجُمل الأربع القصيرة، يفصل بين كلا منهم بضع ثوانٍ، تقول الأولىٰ وتنتظر أي رد فعل من حسنين، وعندما لا يأتيها الرد؛ تردف بالثانية والثالثة فالرابعة، ثم قالت وهي تسير عائدة إلىٰ المطبخ:

- «هعلقلك علىٰ شاي»

حسنين:

- «خليه تقيل يا سعاد... خليه تقيل»

فجأة... تذكر إجابة عطية البدال عن سؤاله له عما كان مكتوبًا في تلك الورقة التي قدمها لهُ المدعو رفاعي! وفي نفس اللحظة جاءت سعاد تحمل الشاي، فجحظت عيناه وقام من مقامهِ صائحًا:

- «يا سعاد... قنابل ومتفجرات يا سعاد»

أثناء تناول كوب الشـاي «الثقيل» قص حسـنين علىٰ زوجته كل ما دار في الطـابور بـدايـةً من الأمـل وعزة النفس والصــبر الجميـل، ومرورًا بالمدعو وديع الذي خرج من مظلة الدعم لأن شــريحة اســتخدامه للكهربـاء مرتفعـة -بـالرغم من أنـهُ لا يمتلـك عـدادًا- ووصــولًا إلىٰ الإرهـابيين الثلاثـة شــركـاء رفـاعي: محفوظ والحكيم وإدريس، ثم خروجه من الطابور خائفًا.

نَظَرتْ الزوجة إلىٰ زوجها شــذرًا بعد ما وضــعت الكوب الفارغ، وانطلقت الكلمات من فمها تُنافس أبواق سيارات النقل الثقيل:

- «بقولـك إيه يا راجـل انتَ... متجننش أمي... بلا قنـابـل بلا متفجرات بلا محفوظ بلا مهزوز... أنا عايزة التموين... قوم فز روح هات التموين دلوقتي عشــان تلحق ميعاد الجدع ابن الرخمة اللي اسمه هشام باشا»



انتفض حســنين من مقعده وتوجه مســرعًا نحو الباب بعد أن التقط معطفه، صــدمه الهواء المليء بالتلوث والأتربة في الشــارع الذي كان يومًا من الأيام راقيًا، قبل أن تنتشر المحلات والمطاعم ويحتل أرصفته الباعة الجائلين، وما تبق من الشــارع قد اصــطف به بعض الشــباب العاطل، يمارسون هوايتهم في متابعة النساء وفرض سيطرة وهمية علىٰ من ساقهُ حظه العاثر بأن يصطدم بهم.

اخترقت مســامعه كلمات أغانٍ لا يفهم معظمها، وتؤذيهِ ألحانٍ لا يرغب في ســماعها، زاد من ســرعة خطواته حتىٰ وصــل إلىٰ الشــارع الرئيســي، حيث توقفت مجموعه من «التكاتك» فقفز بأقربهم إليه، أراح رأســه علىٰ جانبها وأغمض عيناه داعيًا أن يفارقه ذلك الصــداع السخيف.

شـــعر بالنعاس يزحف ببطء ليســـيطر علىٰ عقله، فاســـتســـلم له دون مقاومة، ثم انتفض فجأة حين سـمع صـوت انفجار رهيب، والتوكتوك يطير به عدة أمتار ثم يرتطم بالأرض ليقذفه بعيدًا، حاول النهوض وهو يتحســـس جســـده، ويطمئن بأن كل جزء منه ما زال في مكانه، ثم نظر حوله ليجد أغرب مما يمكن أن يتوقعه.

شـــاهد حســـنين مجموعة من الأطباق الطائرة كما صـــورتها الســـينما الأمريكية، وعددًا من الكائنات الفضـــائية يقتربون منه ببطء، ثم تقدم أحدهم حيث يبدو أنه كبيرهم وهو ينحني أمامه ويحدثه بصـــوتٍ غريب:

- «مرحبًا سـيد حسـنين... نأسـف علىٰ الإزعاج... نحن شـعب كوكب غيليســـيا، جئنا لمقابلتك، فقد بحثنا بين شـــعوب



كوكبكم ولم نجد خيرًا منك لتكون معلمًا لشـعوبنا، لم نجد من هو أطوع منـك، أو من هو أكثر منـكَ امتثـالًا لقرارات المسئولين»

نظر حسـنين إلىٰ كبير الفضـائيين في ذهول، غير مصـدق لما يسـمعه، أخيرًا وجدَ من سيقدر مواهبه ويزيل عنه ضنك العيش.

مد الكائن الفضـائي يده ليمسـك بكتف حسـنين، اسـتفاق حينها علىٰ هزة قوية مع صوت سائق التوكتوك يصرخ:

- «اصحىٰ يا عم ... في إيه... ناموا في بيتكم يا عم الحاج... انتم عايزين تلبسونا نصيبة»

خرج حسـنين من التوكتوك مسـرعًا بعد أن أعطىٰ السـائق أجرته، فرك عيناه ونظر حوله في ندم حينما أدرك أنه كان يحلم، ثم أكمل طريقة



ولعنات السائق تلاحقه حتىٰ وصل إلىٰ عطية البدال، فهو لا يملك الكثير من الوقت، وعليه اللحاق بموعد المدعو هشام باشا.

«بركة يا جامع»

قالها حسنين في نفسه وهو ينظر إلىٰ باب البدال المغلق، يبدو أن عطية قد أغلقه للتو.

«فليذهب عطية وتموينه ومتفجراته ومكتب التموين إلىٰ الجحيم، وليذهب رفاعي وسائق التوكتوك وسعاد إلىٰ الجحيم، لا... لا... فلتذهب سعاد إلىٰ الجنة، فلا أريد مقابلتها في الجحيم أيضًا»

قالها باللغة العربية الفصحىٰ وبصوتٍ خفيض، ثم تلفت حوله متوجسًا مخافة أن يكون هناك من تنبه لتلك الكلمات التي تمتم بها، فأسرع



مهرولًا مبتعدًا عن المكان كالهارب من حكم الإعدام، ثم سار علىٰ غير هدىٰ لا يعرف إلىٰ أين تقوده خطواته، فيقول في نفسه:

«لازم أدور علىٰ بقال غيره، الولية هتقتلني»

- «ربنا يخليلنا المسئولين»

ردّدَ كلماتهِ الأخيرة جهرًا، وكأنه يعلن توبته عما بدر منه منذ قليل من سبه بالفصحىٰ لمكتب التموين في سريرته، ثم سمع من ينادي عليه قائلا:

- «اتفضل يا عم حسنين، تعالىٰ اشرب شاي»

التفت لصاحب الصوت فإذا به «عمر» ابن الأستاذ «صابر» جاره وزميله في العمل، استرع انتباهه «الماشة» التي يحملها عمر في يده



متناولًا بها قطع الفحم ليضـعها علىٰ رأس حجر الشـيشـة، فقال له متعجبًا:

- «شكرًا يا ابني ، هو انت بتعمل ايه هنا؟»

- «أنا دلوقتي شغال هنا في القهوة يا عم حسنين بعد ما خلصت سنة جيش وسنتين من غير شغل»

ثم أردف وهو يضع حجر المعسل علىٰ رأس الشيشة:

- «والله ما تمشي غير لما تشرب شاي، شكلك تعبان، هو انت رايح فين يا عم حسنين؟»

جذب عمر كرسـي إلىٰ «الطقطوقة» القريبة داعيًا عم حسـنين إلىٰ الجلوس ومناديًا علىٰ الشاي المخصوص، جلس حسنين وهو يقول:



- «أبـدًا، كنـت عـاوز أجيـب التموين وعطيـة البقـال قفـل... ماقلتليش يا ابني هو انت مش معاك بكالوريوس علوم؟ ايه اللي مشغلك هنا؟»

أجابهِ عمر ضاحكًا:

- «آه... أصـــلنا خيبنا ودخلنا مدارس... بالـك انت يا عم الحاج... أنا لو كنت اشـتغلت في القهوة دي من زمان... ماكنتش زماني شـياش كده زي ما انت شـايف... كان زماني بقيت بوفيجي قد الدنيا... ويمكن كان زماني مدور بدل القهوة اتنين... بس هنقول إيه... نصيب... أهلي الله يجازيهم دخلوني الجامعة»

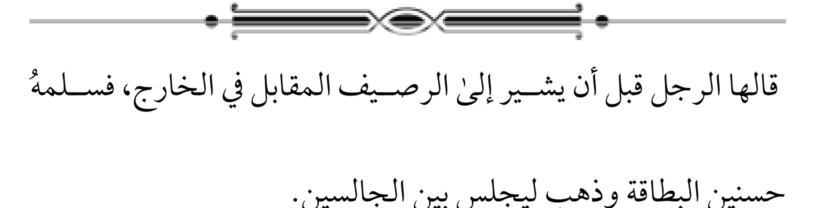
ذهب عمر ليضع الشيشة أمام أحد الزبائن قبل أن يعود وفي يده كوب الشاي المخصوص للعم حسنين، فشكرهُ حسنين قبل أن يطلب منه

ملعقة «شاي ناشف» فأسرع عمر في إحضارها قبل أن ينشغل بطلبات الزبائن من جديد، وكأنّما جاء الشاي في موعده، كان حسنين قد بدأ يشعر بالدوار الذي يسبق إغماءه الضغط يزحف نحو رأسه ببطء، شَرِبَ الشاي في نهم لعله يرفع ضغطه قليلًا ونظر إلىٰ الشارع أمامه، وقعت عيناه علىٰ لافتة مضيئة في الجهة المقابلة مكتوبٌ عليها: «صيدلية د. حسنين» فتذكر سنة دراسته في كلية الصيدلة، تلك السنة التي قلبت حياته رأسًا علىٰ عقب، تذكر فتاة أحلامه التي لم يستطع الزواج منها بعد أن تغالب عليه الفقر، تذكر الحب المكسور، ثم انعدام الظهر والسند.

اقتربت الساعة من الثانية ظهرًا، يجب عليه أن يذهب إلىٰ أقرب تاجر تموين لجلبِ ما تيسر من السلع التموينية حتىٰ تسمح له سعاد بالعبور

العظيم، ألا وهو عبور باب المنزل، فوضـع كوب الشـاي من يده علىٰ الطقطوقة بعد أن أتىٰ علىٰ ثمالته، ونادىٰ علىٰ عمر ليشـكره قبل أن يذهب، سـأل عمر عن أقرب بدال في الحي حتىٰ ينجز طلبه قبل أن يتأخر علىٰ موعده مع هشام باشا، فأشارَ عمر إلىٰ بقالة الأمانة التي تقع علىٰ ناصية قريبة، فودعهُ حسنين وذهب إلىٰ البدال الآخر ليجد الصف هنا أقصـر طولًا، اثنان فقط يقفان أمام البائع، أحدهما يجمع طلباته والآخر يضـع بطاقته في الماكينة التي اسـتحدثتها الوزارة للبطاقات المميكنة، وقف خلف ذلك الواقف أمام الماكينة، فاسـتوقفه أحدهم طالبًا منه البطاقة بصوت مُنَفِّر:

- «علىٰ فين يا أسـتاذ! سـلم البطاقة هنا واقعد اسـتنىٰ دورك هناك!»



قالها الرجل قبل أن يشـير إلىٰ الرصـيف المقابل في الخارج، فسـلمهُ حسنين البطاقة وذهب ليجلس بين الجالسين.

كانت الحركة هنا أكثر تنظيمًا، وتمنىٰ حسنين أن تكون أسرع، فلم يعد يملك من الوقت الكثير علىٰ موعده مع هشام باشا من أجل الوساطة لأوراق ولده في العلاج علىٰ نفقة الدولة.

عن يمينِهِ جلست امرأة ثلاثينية جميلة بدينة تمضِغُ عِلّكة في ملل، وعن يسارِهِ جلس شابٌ صامتٌ ينظر إلىٰ الأرض تارةً وإلىٰ السماء تارةً أخرىٰ، ومن خلفِهِ يجلس علىٰ الرصيف رجلان جاوزا سبعة من العقود؛ يتبادلان السباب والحديث فيما بينهما، فقال أحدهما قبل أن يرد عليه الآخر:



- «الله يرحمه الســادات كان بيوزع علىٰ الناس فراخ ولحمة في الجمعية»
- «يا عم سادات مين... ده عبدالناصر هو اللي عمل لنا التموين أصلًا»

غفا حسنين في جلسته كالعادة، استيقظ علىٰ صوتهما يتشاجران بعد أن وصل بهما الحديث من عبد الناصر والسادات إلىٰ الأهلي والزمالك.

نظر إلىٰ ساعته في نفس وقت آذان العصر، عليه أن يلحق بميعاد هشام باشا، أيُ حظٍ عاثرٍ ذلك الذي يجتمعُ عليهِ اليوم.

وخزتهُ تلك المرأة الثلاثينية البدينة الجالســة عن يمينه، أتبعت الوخزة بضحكة رقيعة سافلة، ثم بادرته بعد أن كفت عن مضغ علكتها بقولها:



- «فيه ايه يا أســتاذ، مالك ســرحان وتايه كدا، زرعتها كنتالوب طلعت قتا؟ روق كدا وخليها علىٰ الله، يا راجل كبر مخك»

انتفض الرجل وقد وقع في روعه أن زوجته سعاد هي من وخزته، ومن غيرها يتفاهم معه باليدِ لا بالقول! لم يرغب حسنين في أن يبادلها قولًا بقول وفعلًا بفعل، بالكاد حبس الدمع في المآقي، نظر إلىٰ يســارِهِ فإذا بالشاب الصامت لا يزال صامتًا، فانتصب حسنين واقفًا واندفع تجاه نقطة تجميع البطاقات، وقال بصوتٍ غاضبٍ ملؤهُ الحنق:

- «هات يا عم الزفت الكارت بتاعي، مش عايز زفت تموين.»

وعلىٰ غير ما توقع جاءه الرد هادئا:



- «يا أستاذ هدّي نفسك، مش كده، مش عايز تموين ازاي! ده علىٰ رأي الحكومة: نواية تسند ال....»

«علىٰ رأي الحكومة» لم يسمع حسنين من كل ما قيل غير هذا المقطع، وكأن له فعل السحر، بلسم شفىٰ أضغان نفس حسنين؛ فآب إلىٰ نفسِهِ وارتد مواطنًا داجنًا مثاليًا، سارع بالاعتذار عن انفلاته؛ فبادره مسئول تجميع البطاقات:

- «ولا يهمك يا أستاذ، عموما لو وراك حاجة ممكن تروح تقضيها وترجع تاخد تموينك، ودورك محفوظ ، متقلقش إحنا بنسهر»

وجدها حسنين فرصة سانحة لمحاولة اللحاق بموعده مع هشام باشا، ثم يعود ثانية إلىٰ البدال.



«توكتوك تاني!»

قالها حسنين لنفسه وهو يتذكر حلم الأطباق الطائرة وأولئك الفضائيين الذين يطلبون خبرته كمواطن مثالي داجن، ثم سمع صوتًا يناديه من قريب:

- «حسنين... يا حسنين»

استرده هذا النداء من خيالاته، نظر حسنين داخل السيارة الواقفة بمحاذاته بحثًا عن مُطلق النداء؛ رأىٰ جاره الأستاذ صابر يشير إليه

قائلًا:

- «اركب يا حسنين»



- «أهلا يا صابر... ازيك يا أبو عمر... إيه الصدفة الحلوة دي»

- «أنت رايح فين؟»

ركب حسنين السيارة وقص علىٰ صابر كل ما مر به منذ الصباح حتىٰ اللحظة، فسأله صابر:

- «يعني أنت رايح تقابل هشام في الجامع دلوقتي؟»

- «أيوه... بسرعة يا صابر عشان أنا اتأخرت علىٰ هشام باشا... وأنت عارف اني محتاج له ضـروري عشـان الواد ابني لازم يعمل عملية... والباشا هيشوف لي واسطة»

- «ولا يهمك .. احنا نعدي علىٰ الشـيخ علاء في المقر... وهو برضـو يقدر يشـوف لك واسـطة... مهو كله بالوسـايط...



والشيخ بتاعنا أستاذ في الوسايط... دول ليهم وسايط ودول ليهم وسايط ... وبعد كده أوصلك لهشام بتاعك ده»

حسنين:

- «هشام!... اسمه هشام باشا يا صابر، عيب كده، المقامات محفوظة»

أردف حسنين قائلاً:

- «وبعدين مقر إيه يا صابر؟ أنت ازاي لحد دلوقتي لسه مع اللي اسمه علاء ده؟»

صابر:

- علاء!... اسمه الشيخ علاء يا حسنين، عيب كده، المقامات محفوظة»

حسنين:

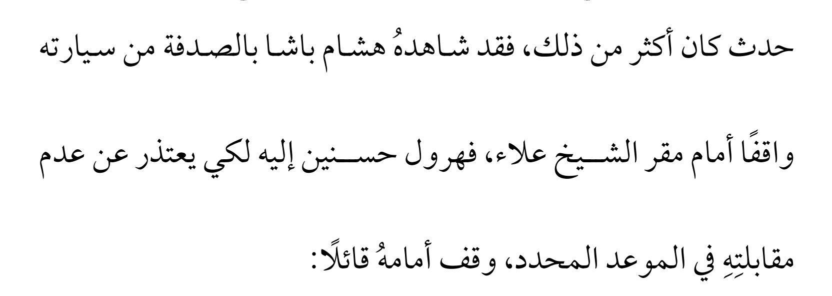
- «ماشي يا سيدي... عم الشيخ علاء ولا تزعل، لكن بتروح له ليه؟»



صمت صابر ولم يجب، أطال الصمت كأنه يحاول ابتلاع الكلمات في حلقه، حتىٰ خرجت الكلمات رغمًا عنه فقال بصوتٍ يُغالب القهر:

- «افهم يا حسنين... ابني عمر معاه بكالوريوس علوم ومش لاقي شغل بقاله سنتين... الشيخ علاء هو اللي جاب لنا واسطة عشان يشتغل في القهوة»

لم ينبس حسنين ببنت شفة، أطلق تنهيدة لا يعرف أهي علىٰ حالِهِ أم علىٰ حالِ صابر، وساد الصمتُ بينهما حتىٰ توقفت السيارة أمام مقر الشيخ علاء بضع دقائق، مرّت الدقائق علىٰ حسنين كأنها من الزمانِ دهرًا في انتظار جاره صابر الذي ذهب ليقابل شيخه وسنده الشيخ علاء، بينما جلس حسنين علىٰ مرجلٍ من النار يخشىٰ أن يراه أحد رجال هشام باشا فيعتقد أنهُ من مُريدي ومُؤيدي المحظورة، لكن ما



حدث كان أكثر من ذلك، فقد شاهدهُ هشام باشا بالصدفة من سيارته واقفًا أمام مقر الشيخ علاء، فهرول حسنين إليه لكي يعتذر عن عدم مقابلتِهِ في الموعد المحدد، وقف أمامهُ قائلًا:

- «لا موآخذة يا هشام باشا... أنا كنت في الطريق لجنابك دلوقتي حالًا عشان موضوع ابني والعلاج علىٰ نفقة الدولة»
- «كنت في الطريق ازاي وانت واقف هنا قدام مقر الشيخ علاء؟ الراجل ده مشبوه وأتباعه كمان مشبوهين... انت بقيت واحد منهم ولا إيه يا حسنين؟»
- «لا أبدًا واللهِ يا باشا... ده أنا خدام السيادة»
- «لا معلش بقىٰ يا حسنين... أنا كده لازم أفكر في موضوعك تاني... مش هقدر أخدمك في علاج ابنك غير لما يوصلني تقرير عنك وعن وقوفك هنا قدام مقر الشيخ علاء... مع السلامة بقىٰ متعطلنيش»



- «لكن يا باشا...»

- «خلاص يا حسنين... وقتك انتهىٰ»

انطلق هشام باشا بسيارتِه تاركًا حسنين يقف في منتصف الطريق كأنهُ تمثالٌ أصم، وأخذت الأفكار والأحداث التي مرّت بِهِ في هذا اليوم تصولُ وتجولُ برأسِه، فتذكر عطية البدال، وتذكر وديع الذي لا يمتلك عدادًا للكهرباء، تذكر رفاعي والتعادلية وإدريس ومحفوظ، تذكر حديث العجائز عن عبدالناصر والسادات والأهلي والزمالك، ثم الشيخ علاء وهشام باشا، تذكر حلم الأطباق الطائرة والفضائيين، تذكر التكاتك وجبل القمامة الذي يتوسط الجزار وبائع العصير، تذكر أنهُ شاهد كل شيء، ولم يفعل أي شيء.

ظل حسـنين واقفًا في منتصـف الشـارع بلا حراك حتىٰ جاءت سـيارة إسعاف تسير بسرعتها القصوىٰ، فصدمتهُ صدمةً شديدةً ارتفع علىٰ إثرها جسده بضعة أمتار، ثم وقع علىٰ الأرض كأنه كتلةٌ من كُتل القمامة التي تسقط من بيوت العشوائيات.

هرول السائرون في الشارع إليه في ذهول، فوجدوه وقد فاضت روحه إلىٰ بارئها، راعهم مشهد صدر حسنين الممزق وهم يضعون أيديهم علىٰ أفواهِهم ورؤوسِهم، أو علىٰ صدورِهم وقلوبِهم، وفي سرعة... ترجل المسعفون من سيارة الإسعاف؛ نقلوا جثمان المدعو حسنين إلىٰ السيارة، ثم انطلقوا في صمت.

رحل حسنين...



رحل حســنين دون أن يحصــل لولـدِهِ علىٰ أوراق العلاج علىٰ نفقة الدولة.

رحل حسنين ولم يحصل علىٰ السلع التموينية.

رحل حسنين ولم يكن له موقف من هشام باشا أو الشيخ علاء.

رحل حسنين ولم يكن ساداتيًا أو ناصريًا أو زملكاويًا أو أهلاويًا.

رحل حســنين ولم يحصــل علىٰ تقديرٍ من الكائنات الفضــائية لكونِهِ مواطنًا داجنًا مُطيعًا.

رحل حسنين... ولم يفعل أي شيء.

رحل... كأنهُ لم يكن أبدًا علىٰ قيد الحياة.

الفهرس